الرسائل الإسلامية

١

وذكرهم بأيام الله

أنور الجندي

مؤسسة الرسالة



وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ

الطبعة الثانية
طبعة جديدة منقحة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

(١)

ماذا تعطي سيرة الرسول ﷺ للمسلمين في مواجهة تحديات العصر؟

من الحق أن يقال أن المسلمين عاشوا تاريخهم كله خلال هذه القرون الأربعة عشرة التي تكتمل بعد قليل لتفسح الطريق أمام ضوء القرن الخامس عشر الهجري، عاشوا يتطلعون إلى ذلك النموذج الأمثل والمثل الكامل: أشرف الخلق وخاتم النبيين فيجدون في وقائع حياته كل ما يضيء أمامهم الطريق إلى تطبيق شريعة ربهم والى منهجه في الحياة الذي جاء به القرآن وحياً من عند الله وخاتماً لكتب السماء وكان رسول الله محمد بن عبدالله وهو الذي ألقي هذا القرآن على قلبه) نموذجاً صحيحاً صادقاً للتطبيق فقد كان خلقه القرآن وقد كان وسيظل كما وصفه ربه (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) فإذا فتحنا باب الحياة وأسلوب العيش وجدناه يعطينا ما نحتاج إليه، وإذا يممنا شطر العمل أو الحركة أو النوم، أو الجهاد، أو الحرب، أو البيع أو الشراء أو أي وجه

من وجوه التعامل قدمت لنا السنة الصحيحة صورة كاملة ما استطاعت شريعة أخرى أن تحصل عليها، وذلك من فضل الله على هذه الأمة حين تعهد تبارك وتعالى بحفظ كتابها وكذلك حفظ لنا وقائع حياة رسولها الكريم لتكون نبراساً على هذه النظم التي فرضها الحق تبارك وتعالى على الأمة الإسلامية ودعاها إلى أن تحملها إلى البشرية كلها.

ولعل أخطر ما يواجهنا الآن ونتطلع إلى أسلوب التعامل معه: هو التغريب والغزو الثقافي ونحن في هذا المجال نجد رسول الله ﷺ يتحدث في عشرات المواضع عن «الأصالة» ويدعو المسلمين إلى المحافظة على طابعهم ونموذجهم، بعيداً عن تقليد النصارى أو اليهود حتى يظلوا «شامة» في الناس وعلامة في الجماعة. وكان يغضب حين يلجأ أحد إلى البحث عن رقعة من كتاب قديم، ذلك أن القرآن حين نزل والإسلام حين جاء ومحمد حين بعث فقد أصبح القديم كله يدرس من خلال القرآن نفسه، هذا القديم الذي حرف وانتقص وزيد فيه فلم يعد صالحاً لأن يكون موضع النظر الصحيح، وكل ما كان في القديم فقد فصَّله القرآن وقدمه غضاً طرياً صحيحاً، ومن هنا فقد حكم القرآن حكماً واضحاً نهائياً على الفكر البشري القديم السابق له، وأعطى المسلمين مفاتيح النظر فيه وكشف عن الحقائق الربانية التي جاءت بها الأديان السماوية المنزلة وما أضافه البشر تفسيراً أو تأويلاً أو هدياً أو ضلالاً.

وكان هذا المعنى واضحاً في وقائع حياة الرسول إستمداداً

من القرآن نفسه الذي أعلن في اكثر من موضع أنه هو الحق وما سواه - مما يتعامل به الذي لم يؤمنوا بالإسلام - هو الباطل: كذلك فنحن نقف هذا الموقف من الفكر البشري الذي نشأ بعد الإسلام وهو لم يزد عن نظريات الفكر الغنوصي البابلي الوثني، والمجوسي، والهليني اليوناني وكلاهما قد شجب القرآن ما قدموه من نظريات، وكل ما نجده الآن ليس إلا هذا الفكر نفسه موضوعاً في صيغ جديدة وكلمات براقة عصرية ولكن لا يخرج عن أهواء المادية الوثنية الملحدة الإباحية التي عارضت دين الله الحق قبل الإسلام، وبعده، ثم جاء (القرآن) ليكون بين أيدي المؤمنين سلاحاً كاشفاً وقاتلا لكل ذلك الخليط المتناثر المضطرب المليء بأهواء النفوس الضالة ومطامعها المنحرفة عن جادة الحق الذي قال به الحق تبارك وتعالى على ألسنة أنبيائه وصحائف كتبه وقد جاء القرآن محكماً لها ومفصلا بحيث لا يخطىء قارئه أن يجد فيه الرد الواضح الحاسم على تلك الشبهات والزيوف المضلة.

وقد أكد الرسول ﷺ أن هذا الحق الذي قدمه الإسلام والقرآن سيظل قادراً على الحياة، قادراً على رد الشبهات ودحض الأكاذيب «وإن الله يبعث لهذه الأمة كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، وهو حديث صحيح رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه والبيهقي في المعرفة وغيرهم من حديث أبي هريرة وأشار السيوطي في جامعه الصغير إلى صحته» وهو ما أكده رسول الله ﷺ في قوله الكريم:

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة » أولئك هم مفكرو هذه الأمة المؤمنون بالجهاد بالكلمة في سبيل تحرير المفاهيم وتصحيح القيم والتماس منابعها وأصولها في وجه تلك المحاولات المضطردة لتحريف الفكر الإسلامي وتزييف اصول الإسلام وإدخال أساليب ترضي الغربيين والمستشرقين : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

٢ ـ وفي قضية المواجهة مع العدو : تلك المواجهة الدائمة التي يتطلبها حفظ البيضة إلى يوم القيامة وجّه الرسول ﷺ أتباعه إلى ما ردده القرآن في أكثر من موضع عن اليقظة وأخذ الحذر من أن يباغتهم العدو فيأخذ ما في أيديهم .

« خذوا حذركم » « ود الذي كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

ودعا الرسول المسلمين إلى أن يتخذوا في مصر جندا كثيفاً ، وحرض المسلمين على توارث اليقظة الدائمة حتى لا تستلب منهم أجزاء من أرض الإسلام .

٣ ـ كذلك فقد أكد رسول الله على وحدة الأمة الإسلامية بعد ما أكد على وحدة البشرية ، حتى لا تقوم دعوات الاستعلاء بالدم أو بالعنصر أو بالإقليم أو الطائفة :

« كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى » .

٤ ـ وأقام رسول الله قضية المنهج كاملة: وفي التحدي الأكبر الذي تحاول بعض القوى أن تغري المسلمين بقبوله وإقامة اقتصادهم عليه « الربا » وجَّه الرسول المسلمين إلى الحق عن طريق واضح صريح مطابق للقرآن الكريم الذي حرم الربا حين قال كلمته الخالدة في خطبة الوداع « إن كل ربا موضوع وأول ربا أضعه تحت قدمي هاتين هو ربا عمي العباس بن عبدالمطلب » .

وفي ذلك تبليغ كاف لقادة المسلمين وحكامهم: حين قال عليه الصلاة والسلام:

« كان فيما قبلكم إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف اقاموا عليه الحد » ثم يقول: « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

وهكذا يضع الرسول بتوجيه القرآن ووحيه أسلوب التعامل مع الناس من حيث تطبيق الشريعة على الجميع. وأن يكون القائد الحاكم أشد الناس إيماناً بالتطبيق في أهله.

* * *

وترد هذه المعاني على الذهن اليوم في مواجهة التحديات التي يجدها المسلمون في مجتمعاتهم في هذا العصر، وأقوى هذه

التحديات «التبعية»: ذلك أن أخطر ما يواجه المسلمين اليوم هو محاولة «تذويبهم في بوتقة الأممية» من خلال توسع أساليب الحضارة وأدوات العصر التي تتحدى المجتمعات الاسلامية بأن تستسلم للتقليد وأن يتحول عن أسلوب عيشها الإسلامي إلى أسلوب العيش الغربي فيفقد بذلك المسلمون ذاتيتهم وطابعهم وأسلوب عيشهم، ونحن نجد الآن أخطاراً شديدة تحيط بمجتمع المسلمين لإغراقهم في بوتقة العالمية الضالة ولا ريب أن هذا هو آخر التحديات التي تواجههم، فيفقدون بها دورهم في البشرية وامامتهم للانسانية من حيث أنهم مكلفون بحمل أمانة الإسلام في صورته الربانية وتطبيقها في مجتمعهم ثم دعوة البشرية كلها إليه فإذا عجز المسلمون عن المحافظة على ذاتيتهم والقصور عن تطبيق شريعة الإسلام في مجتمعاتهم فإنهم يتعرضون بذلك لخطر كبير، وهذا هو ما تحاوله دعوات الاستشراق والتغريب والغزو الثقافي وتعمل له منذ أكثر من مائة عام، لهدم هذا الصرح، والضرب بالمعاول في هذا الجدار الذي بناه رسول الله وصحابته لهذه الأمة، وعليهم مسئولية التقصير في حماية هذا الجدار ولن تكون هذه المسؤولية في جزاء الآخرة وحدها ولكنها ستأخذهم في هذه الدنيا نفسها لأنهم قصروا في التحذير منها والكشف عن أخطارها والأخذ على أيدي العابثين بها.

هذه هي العبرة الكبرى التي تواجهنا حين نذكر رسول الله ﷺ في مناسبة مولده أو هجرته، فنلتمس من حياته وسنته

العبرة، ونلتمس القدرة على مواجهة الأخطار والتحديات، هذه الأخطار التي تتلخص في العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وإلى إقامة نظام تربوي تعليمي إسلامي يتمثل في بناء الأجيال الجديدة وفق منهج القرآن، وأنا لنجد اليوم خطوات جديدة نحو تقنين الشريعة الاسلامية وتطبيقها وما تزال أمام الدعوة محاذير كثيرة نرجو أن يتغلب عليها المفكرون المسلمون بحكمة ويقظة حتى لا تتغير تشريعاتهم ظاهرياً «وتبقى روح القانون الوضعية قائمة في ثناياها».

أما الدعوة إلى إعادة النظر في مناهج التعليم والتربية فإنها ما تزال دعوة بغير دعاة ولا أنصار وأنا لنرجو أن يتوفر لها الداعون في البلاد العربية بعد أن سبقهم إلى ذلك دعاة مسلمون من إخوانهم في الهند حيث عالج المؤتمر ـ الذي عقدته ندوة العلماء بقيادة السيد العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي في نهاية العام الهجري المنصرم ـ هذا الموضوع بتوسع وألقى أمام العرب المسلمين مسؤوليتهم وتبعتهم في هذا الأمر فذلك وحده هو المنطلق الصحيح لقيام نظام تعليمي وتربوي إسلامي يجدد شباب الإسلام وينشىء الأجيال القادرة على حمل أمانة تطبيق الشريعة الإسلامية والأصالة في وجه الأخطار التي تجتمع في الإستعمار والصهيونية والماركسية لضرب هذه القوة الربانية التي يجب أن تظل مناراً هادياً للبشرية دالاً لها على الوجهة الحقة، ولذلك فنحن في أشد الحاجة إلى تحرير مناهج التعليم من الآثار السيئة التي تركتها

عهود الإحتلال ومن الأهداف التي قصد إليها المستعمر ومن محاولات الحيلولة دون «بناء» جيل جديد من الشباب القادر على الربط بين الثقافة والخلق والجمع بين النفس والروح، والعقل والجسم، والدين والعلم، وهو منهج الإسلام الجامع الذي لا سبيل الى أي نهضة الا بتطبيقه وأننا لنهيب بأئمة المسلمين وقادتهم أن يقتنصوا هذه البادرة حتى يستطيع العرب أن ينتقلوا سريعاً من مرحلة التبعية إلى مرحلة الرشد الفكري وهم على أبواب ذلك القرن الجديد الذي يمتلكون فيه قدرتهم وطاقتهم وتفوقهم البشري فيكونوا بذلك مؤهلين لإحتلال مكانتهم الحقة في البشرية وإبلاغها رسالة الإسلام التي انتدبهم الحق تبارك وتعالى لدعوة الإنسانية إليها.

- ٢ -

مولد الرسول

علامة رشـد الإنسانية

ان مولد الرسول محمد ﷺ علامة في تاريخ الإنسانية على أنها قد بلغت رشدها، وأصبحت قادرة على أن تتقبل رسالة إنسانية عالمية خالدة، وقد كانت رسالات الأنبياء من قبل، إقليمية وقومية، لبلد أو لقوم أو لعصر، حتى كان يظهر أكثر من نبي في أقطار متجاورة في وقت واحد فلما جاء «الإسلام» كان رسالة الإنسانية كلها، عصارة دعوة التوحيد التي انتظمتها الأديان السابقة جميعاً، تتسم بطابع العالمية، وتمثل حركة التاريخ إلى غاية البشرية وحتمية بلوغ الإنسانية إلى أرقى قيمها ومقوماتها: توحيد الله ووحدة شاملة وأخوة كاملة، وعدل اجتماعي.

فإذا نظرنا اليوم إلى معضلات البشرية بعد أربعة عشر قرنا من بزوغ فجر الإسلام: نجد أن القضايا الكبرى الثلاث هي الوحدة والعدل الإجتماعي والأخاء الانساني، ونجد أن خصوم الإنسانية ما زالوا يعملون على تمزيق البشرية الى

إقليميات ووطنيات ضيقة وقبليات، وهذا ما حسم الإسلام الرأي بشجبه، ونجد أنهم ما زالوا يحولون دون تحقيق العدل الإجتماعي واعطاء الكافة حقها ورفع الطبقات الفقيرة إلى مستوى عادل في الرزق، وهو ما دعا الإسلام إليه، ونجد التفرقة العنصرية ما تزال تقوم بمساندة فئات المستعمرين في وجه الأخاء الإنساني، وقد شجب الإسلام التفرقة العنصرية ودعا إلى المساواة وقال رسوله الكريم كلمته الجامعة الخالدة:

« لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ».

فالإسلام يمثل بالحق الدعوة الانسانية وحتمية التاريخ التي يسعى إليها طلاب الوحدة والعدل والمساواة.

وقد اتسمت رسالة الإسلام التي حملها محمد بن عبدالله ﷺ بقدرتها على الالتقاء بالحضارات والأزمنة والأقطار المختلفة، وما تزال تشق طريقها في قوة، بغير مؤسسات تبشيرية خاصة، وإنما بالقوة الذاتية وبالقدرة الخالصة وبالعبرة المستمدة من القرآن وسيرة الرسول والسنة النبوية الشريفة.

وقد واجه الإسلام منذ بزوغ فجره إلى اليوم، غزواً خارجياً مستمراً تمثل في الحروب الصليبية للشرق وغزو الفرنجة للمغرب والأندلس وغارات التتار، ثم في حملات الإستعمار الغربي الضارية في العصر الحديث غير أن « عالم الإسلام » قد استطاع دائماً أن يواجه هذه المواقف بقوى

جديدة شابة تبرز في وقت الأزمة، لتقاوم القوى الغازية، ولقد استطاع السلاجقة والبربر والمماليك أن يردوا الحملات الصليبية التى عادت بعد قرنين مهزومة كليلة وإن كانت قد حملت معها من عالم الإسلام مصادر الحضارة وضياء الفكر الإسلامي، وفي هذه المرحلة استطاع الغازي أن ينقل الحضارة المغزوة، وكان ذلك بدء الحضارة الحديثة التي قامت أساساً على آخر مراحل نمو الحضارة الإسلامية أما قوى التتار فقد استطاع الإسلام أن يصهرها في بوقته وأن يحولها الى قوى تعمل لنصرته، واستطاع الإسلام في أشد مواقف الغزو الغربي أن يشق طريقه إلى ميادين جديدة في قلب أفريقيا وفي الملايو وجاوه، فيضاعف نفوذه ومعتنقيه واليوم يواجه الغزو الفكري وقفة عارمة.

لقد ظل الإسلام يقطع هذه المراحل وهو يتمثل حياة ذلك النبي الذي حمل رسالة الإسلام ويتصل بهذه الحياة التي عاشها.

وتتمثل حياة الرسول في صورتين أو مرحلتين: (الأولى) مرحلة الإنسان الفرد في مكة حتى سن الأربعين رجلا أمينا سمحا، معروفا برفعة الخلق عزوفا عن الشر، يعمل في رعي الغنم ثم في التجارة، ولعل أبرز صورة في هذه الفترة هي صورته، وهو يدخل الكعبة وقد اختلفت القبائل حول الحجر الأسود، تحاول أن تعيده إلى مكانه في بناء الكعبة الجديد،

حتى إذا بلغ خلافها غايته، اتفقت على أن تحتكم إلى أول داخل إلى الكعبة وبينما هم وقوف ينتظرون: دخل محمد بن عبدالله فاستراحت النفوس ونظر القوم بعضهم إلى بعض في رضا غامر، وقالوا هذا هو الأمين، وارتضوه حكما بينهم. هذا الموقف في ذاته يعطي صورة مجيدة لمحمد قبل البعثة في نظر القوم الذين بعث إليهم من بعد، فإذا جاء حكم « محمد » على ذلك النحو الذي حكم به فقد أعطى هذا الحكم صورة « عقل الرسول » وقدرته وبراعته في حل أعقد مسألة سياسية في عصره، مسألة أي قبيلة تفوز بشرف وضع الحجر الأسود في مكانه من بناء الكعبة، وكان الحل الحكيم الذي قدمه هو أنه فرد رداءه ووضع عليه الحجر الأسود؛ وقال: فلتأخذ كل قبيلة بطرف حتى إذا رفعوه جميعا وبلغوا به غايته، أخذه عليه السلام فوضعه في مكانه، تلك إحدى صور الرسول قبل البعثة وهي صورة رائعة تعطي لمحة عن ذلك الإنسان الذي اختاره الحق لأعظم رسالة. أما الأخرى فصورته تاجراً أميناً، تزيد التجارة على يديه وتربو، وفي فهمه وسماحته، وفي رحيله وأسفاره، مما دفع السيدة الكريمة « خديجة » أن تلتمس الزواج منه، محبة وتقديراً وإعجاباً ثم كانت من بعد له نعم العون والرفيق على متاعب الرسالة.

وكانت معجزة محمد بن عبدالله ذات طابع متميز عن معجزات الأنبياء من قبل، كانت معجزة كل نبي تتمثل في أعظم ما يتطلع إليه الناس في عصره، كانت معجزة موسى

(العصا) في مواجهة انتشار السحر، ومعجزة عيسى إحياء الموتى في مواجهة التطلع إلى شفاء المرضى، وهي معجزات موقوتة بعصورها وأهلها، أما معجزته الكبرى، فقد كانت «القرآن» آية البلاغة العربية الباقية الخالدة، في كل عصر ومكان، مرتبطة بالإنسان والأزمان واللغة العربية والمسلمين، وما يزال القرآن معجزاً لأهل الإسلام، ولأهل اللغات الأخرى فهو معجز بلفظه، ومعجز بمعناه، معجز في بلاغته التي ترتفع عن الترجمة الحرفية، ومعجز في أسراره التي ما تزال تتكشف في مجال الفلك والكون والعلوم، هو متميز متفرد بخصائصه التاريخية في مجال سلامة النص. فما يزال «الوثيقة الخالدة» التي حفظها الله تعالى على مدى الأجيال سليمة كاملة من كل زيف أو تحريف.

وقد أنزل القرآن على محمد «ﷺ» في خلال ثلاث وعشرين سنة، منجما مرتبا بالأحداث والمواقف، يتمثل فيه «مفهوم الإسلام» وأيدلوجيته، ومراحل الرسالة في كلا ملاحلتيها العظيمتين المتكاملتين: مرحلة «مكة» حيث تدرجت الدعوة من سرية إلى علنية، ومن لقاء فردي إلى إنذار العشيرة، إلى صدع بالدعوة وإعلان لها إلى مواقف المعارضة والمقاومة، والتمسك بالحق وصلابة المستضعفين القلة في وجه القوة القرشية القاهرة خلال ثلاث عشرة سنة، ثم تمثل فيه المرحلة الثانية منذ الهجرة إلى ختام الرسالة (اليوم أكملت لكم دينكم) بمواقفها وقضاياها في مجال الحرب،

وجلاد الخصوم، وفي مجال بناء الجماعة الإسلامية، وفي مجال الزكاة والزواج والأخاء والمواريث.

وما تزال صورة الإسلام للدعوة الإسلامية في بنائها الأول قائمة، ترسم أدق الملامح للخطوط العامة لمجتمع الإسلام: دينا ومدنية، فرداً ومجتمعا، علاقات المسلمين بالله، وببعضهم، وبغيرهم في قيم عامة شاملة صالحة لكل زمان ومكان، قادرة أن تهدي المجتمعات الإنسانية وتصل بها إلى غاية الغايات في القوة والحركة والتقدم والحيوية في ظل مقومات أساسية: هي التوحيد، والعدل، والأخاء والقوة، والوحدة.

ولقد ظلت سيرة الرسول وما تزال «قدوة» تحتذى ومثلاً يتطلع إليه المسلمون: حكاماً وقادة ومفكرون وعلماء، من حيث سلوكه الشخصي وبلاغته وحنكته وبراعته في مواجهة مواقف الحياة، وفي سماحته وعفوه وارتفاعه على الأزمات والأحداث. وقد ظلت صورته حية في نفوس المجاهدين والفاتحين وبناة الدول. وفي مجال مقاومة الغزو الخارجي لعالم الإسلام، حتى التمس هذه القدوة في العصور التالية البعيدة أمثال صلاح الدين ونور الدين والظاهر بيبرس، ويوسف بن تاشفين وعبدالمؤمن بن علي. لقد تمثل في سيرة الرسول أمر جليل القدر والشأن في حياة الإسلام وتاريخه كله، ذلك هو (المثل الأعلى للانسان المسلم) ممثلاً في شمائل الرسول وحياته

ومواجهته للأمور: على النحو التطبيقي للقرآن نفسه، ومن هنا كانت حياة الرسول هي التجربة للنص القرآني ومن هنا كانت علاقة حياة النبي وسيرته بالنص القرآني علاقة لا تنقطع ولا تنفصل، ومن هنا يخطىء الذين يحاولون الإكتفاء بالنص القرآني لفهم الإسلام. ولعل سيرة الرسول كتطبيق لمفهوم القرآن أبلغ اثراً في نفوس المدعوين إلى الإسلام، فإنها هي التطبيق الصادق الدقيق للنص، على النحو الذي صورته السيدة عائشة في قولها عن النبي في لفظ دقيق معجز «كان خلقه القرآن».

وإنه لمن توفيق الله أن هذه السيرة قد كتبت على نحو أوفى على الغاية دقة وكمالا، وهو ما لم يتحقق لسيرة نبي أو عظيم. فقد جمعت سيرته كل دقائق حياته ﷺ: في صباحه ومسائه. وسفره واقامته وفي غدوه ورواحه، وفي أيام السلم والحرب، وفي بيته وفي المسجد، وفي علاقته مع أهله وأصحابه وخصومه والناس جميعا على نحو دقيق يتصل بالسند ويعطي أروع صورة لأعظم رجل في تاريخ الإسلام بل الإنسانية فهو القوي الشجاع الذي لا يتراجع، وهو الكريم السمح المطواع وهو الصادق الذي يقول الحق ويجهر به، وهو الرقيق الذي لا يجرح أحداً بكلمة، وهو المثل الأعلى، خطيباً، ومتكلماً وبلاغيا وبشراً وزوجاً وأباً وصديقاً وحاكماً وقائد جيش.

وتمثل أحاديث الرسول جانبا هاماً من فكر الإسلام

ودعوته، وهو ما يطلق عليه «السنة» وهي في تقدير الباحثين في الإسلام «المذكـرة التفسيرية» للقرآن الكريم، فهي التفسير والتوضيح لنصوص القرآن المحكمة الجامعة وهي كلمات المعلم الذي يتلقى الوحي من ربه، ثم يطبقه في الناس على اختلاف عقلياتهم ونفسياتهم، فإذا هو يقربه إليهم ويشرحه ويوضحه.

وقد مرت أحاديث الرسول بدور الجمع الدقيق، حيث وضعت لها القواعد العلمية التي كانت موضع تقدير الباحثين حياطة لكلمات النبي من أن يضاف إليها، وقد تقول عليه الكثيرون، وأضافت الإسرائيليات كثيراً مما لا يتصل بحديثه.

ولكلمات النبي كلها طابع ونكهـة وروح يعـرفهـا الذيـن يعايشون السنة ويراجعونها، وهي في أسلوبها ومنهجها تختلف عن أسلوب الناس؛ تقول السيدة عائشة: ما كان النبي يسرد كسردهم هذا، ولكنه كلام قليل لو عده العاد لأحصاه.

وفي أحاديث الرسـول يتمثـل جـانـب هـام مـن فكـر الإسلام، وعقلية النبي الذي حمل الرسالة وقاد الدعوة ثلاثة وعشرين عاماً، يحدث النـاس ويـرسم خطط الحرب والسلم، ونظم المجتمعات ورسائل الملوك، أحاديث الوفود، وخطب الجمعة والحرب وفيها حديثه إلى أهله وإلى رجاله وإلى كل من يتصل به. وهي في مجموعها تمثل جوامع الكلم والأصل الأشمل لكل ما يتصل بالإسلام: عقيدة وعبادة ومعاملات.

حقاً، لقد كان مولده أضخم حدث في تاريخ العرب والإسلام.

(٣)

هذا الأمين رضينا : هذا محمد

ما تزال سيرة رسول الله ﷺ تمد الباحثين بزاد متجدد يغري بالمراجعة والبحث والتأمل، ويتفتق دوماً عن رؤية جديدة، ويكشف حقائق مشرقة تلقي أضواء ساطعة على طريق الإنسان وتمد المسلمين بزاد جديد، ومنها دائماً ما يدحض شبهات أصحاب الشبهات مما يحيكون حول حياته عليه السلام وبخاصة في مرحلة ما قبل البعثة.

ولقد كنت دائماً أتطلع إلى إلقاء نظرة على حياة النبي قبل البعثة، خلال فترة الأربعين عاما التي أرسل محمد ﷺ على رأس العام المتم لها. لأرى كيف كان يعيش هذا الرسول الكريم قبل أن يلقى إليه هذا الأمر الجلل، ولقد نجد في كتب السيرة توسعاً كبيراً عن مرحلتي البعثة والهجرة في حياته عليه السلام بينما لا تقدم إلا صفحات قليلة عن هذه المرحلة السابقة للنبوة.

ولكن هذه الصفحات القليلة، وتلك الوقائع اليسيرة،

تكفي في إعطاء صورة واضحة لشمائل هذا الإنسان الكريم المحتـد الذي كان يعده مولاه لأعباء الرسالة الكبرى. خاتم رسالات السماء ودين الإنسانية إلى يوم تقوم الساعة.

ولا يهز النفس شيء مثل ذلك الموقف، يوم أعيد بناء الكعبة واختلفت القبائل وعزمت على أن تقابل بعضها من أجل أيها تفوز بالشرف في وضع الحجر الأسود في مكانه من بناء الكعبة ثم تتفق على أن ترضى بحكم أول داخل من باب الصفا، فإذا به (محمد بن عبـدالله) هنالك هتفـوا جميعـا في صوت واحد:

«هذا الأمين رضينا، هذا محمد».

تلك هي الشهادة التي تكذب كل ما قالته قريش من بعد مما أرسلته من ادعاءات وأكاذيب عندما جاء محمد برسالة الإسلام يدعوهم إلى التوحيد.

ويروي هذا الموقف الحاسم الخطير ابن هشام فيقول:

«إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبناء الكعبة. كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن (الحجر الأسود) فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ثم تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا (لعقة الدم) فمكثت قريش على

ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا.

وقال أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله وكان عامئذ أسن قريش كلها:

«يا معشر قريش. اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم» ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله، فلما رأوه قالوا:

«هذا الأمين رضينا حكمه، هذا محمد».

فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال: «هلم إلي ثوباً».

فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه وكانت قريش تسمي محمداً قبل أن ينزل عليه الوحي (الأمين).

ماذا تعطي هذه الواقعة:

إنها تعطي الكثير مما يرسم صورة حية للرسول ﷺ. هذا الموقف الحاسم الخطير. كيف فصل فيه محمد (وقد وقع قبل الهجرة بثمان عشرة سنة) وبين البعثة والهجرة ثلاثة عشر عاماً. أي أن الرسول كان في سن الخامسة والثلاثين - وعلى هذا النحو من البداهة السريعة والذكاء، والإلهام، والقوم على ما هم فيه من جهامة واستعداد للقتال وكيف استراحت نفوسهم

لهذا الرجل الكريم الذي ما عرفوا عنه إلا الخير، وكيف أجزل الله من العطاء فأعطاه هذا الشرف أن يحمل الحجر ويضعه في ثوبه مرة ثم يضعه في مكانه من البناء مرة أخرى.

ولقد جاءت هذه الثقة، حتى لقب محمد بالأمين نتيجة وقائع كثيرة وأحداث متصلة (١) منها ما يتصل بالتجارة (٢) ومنها ما يتصل بخلقه وتعففه ﷺ (٣) ومنها ما عرف من أزوراره عن المجتمع الجاهلي كله. وتحنثه في الغار.

وفي هذا تروى مواقف عديدة:

يقول الرسول: (لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله في رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك. قال: فأخذته وشددته ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري على من بين أصحابي:

فإذا انتقل من مجال اللعب إلى مجال اللهو وجدنا صورة أشد عمقاً:

عن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله يقول:

(ما هممت بشيء مما يهم به أهل الجاهلية إلا مرتين: كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما، أي من فعلهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها:

أبصر لي غنمي حتى اسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا، قالوا: فلان زوَّج فلانة لرجل من قريش فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتني عيني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت الى صاحبي فقال: ما فعلت؛ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك).

فقال رسول الله: (ما هممت بعدها بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى كرمني الله عز وجل بالنبوة).

* * *

وكانت رحلته إلى التجارة مجالا واسعاً للكشف عن شخصيته، أمانة وحسن معاملة وقدرة على البيع والشراء. وكان رعي الغنم من قبل التجارة من هذه الخيوط التي كانت تتجمع لتنسج لهذه الشخصية عناصر تكاملها وبنائها في كل مجال، وكان يقول: (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم).

وقد رحل ﷺ مع عمه أبي طالب وعمره اثنتا عشرة سنة، ثم رحل رحلته الشهيرة مع ميسرة في سن الخامسة والعشرين وكان في تجارة خديجة.

يقول ابن هشام: كانت خديجة بنت خويلد إمرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً فلما بلغتها عن

رسول الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له «ميسرة» حتى قدم الشام فباع سلعته واشترى ثم أقبل قافلاً إلى مكة، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعثاً ما جاء به فأضعف أو قريباً وحدثها ميسرة عنه، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله.

قالت نفيسة بنت علية: «أرسلتني خديجة قلت: ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال عليه السلام: ما بيدي ما أتزوج به. قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال، قال: فمن هي، قلت خديجة».

وكان ذلك من أبرز أحداث حياته قبل البعثة وتمضي الرواية فتصور له ﷺ مواقف مختلفة: منها اشتراكه في حلف الفضول: يقول لقد شهدت في دار عبد بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت».

ثم حببت إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده، فكان يخلو بغار حراء، فيقيم فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها.

تلك الصور الخاطفة تستطيع أن تعطي ملامح هذا الإنسان العظيم الذي اختاره الحق سبحانه وتعالى ليحمل رسالة الحق،

بطبيعة تكوينه، وبما امتلأت بـه نفسـه مـن الخير والأمـانـة والسماحة والحياء حتى قيل: إنه كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنـه البيـوت ويفضي إلى شعـاب مكـة وبطـون أوديتها.

ومن هنا قالت قريش في أشد أزماتها وأدق مواقفها عندما أهلَّ من باب الصفا:

« هذا الأمين رضينا، هذا محمد » ومن هنا فإنه يوم وقف على الصفا بعد أن أنزل إليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » ونادى القبائل قبيلة قبيلة، يا بني عبد مناف، يا بني هاشم، يا بني كذا فلما سمع القوم نداءه قالوا: هذا محمد على الصفا ينادي، فاجتمعوا له: هم في السفح وهو على الجبل قال: أرأيتم لـو أخبرتكـم أن خيلاً وراء هـذا الوادي تجري، أكنتم مصدقي؟

قالوا: ما عهدنا عليك كذباً قط.

هذه الكلمات التي جاءت في موقف الخطر والحسم تكشف عن الحقيقة الكامنة ومثلها ما قالته خديجة عندما نزل يرجف بعد أن جاءه الوحي لأول مرة:

والله لا يخزيك الله أبداً، إنـك لتصـل الرحـم وتصـدق الحديث وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر.

تلك المواقف، تجري على الألسنة كلمة الحق التي تضيء

أمام الباحث سبيل الحقيقة وتعطي أصفى بيان عن محمد ﷺ قبل أن يبعث بما يدحض كل ما يذهب إليه بعض المستشرقين وما يخلطوا فيه من دعاوى وأضاليل، ويدحض كل ما قالته قريش بعد البعثة حقداً وحرباً لمحمد وللإسلام.

وهذه كلها مقدمات واضحة لحياة نبي اصطفاه ربه لأعظم رسالة وليست صورة بشر من البشر الذين كانوا يضطربون في أنحاء مكة في آخر عصر الجاهلية.

(٤)

الإسراء والمعراج

من أبرز صفحات النبوة

يقـع حـادث الإسراء والمعـراج بين أحـداث الدعـوة الإسلامية في موقع فريد، ويأتي في طريق الأحداث المتوالية على نحو واضح الدلالة في إرادة الله باختيار توقيته. فهو طاقة نور وتبشير لنفس النبي الكريم بعد أحداث قاسية مرهقة، وهو امتحان واختبار للكشف عن معادن المؤمنين ومقدمة لموقف حاسم في طريق الدعوة هو حادث «الهجرة» وهو تكريم لفريضة من أجلّ فرائض الإسلام وهي «الصلاة» فقد شرعت كل الفرائض بالوحي ينزل إلى النبي أما الصلاة فقد استقدم النبي ليتلقى الأمر بها في موكب له خطر ما للصلاة من مكانة في دعوة الإسلام.

كانت السنوات الثلاث السابقة لحادث الإسراء والمعراج من أشق السنوات على المسلمين، تلك هي سنوات حصار المسلمين في شعاب مكة بعد عقد صحيفة المقاطعة التي فرضت فيها على قريش ان لا تبيع ولا تباع ولا تتعامـل مـع المسلمين

فأجبر النبي مع حفنة من المسلمين إلى مقاطعة كاملة من أقسى ما فرض على جماعة قليلة، من ذوي النفوذ. وما كادت تلك السنوات تمضي وتخفف هذا الضغط بنقض الصحيفة، حتى وقع في عام واحد حادثان فاجعان كانا بعيدي الأثر في مجرى الدعوة الإسلامية: هما موت أبي طالب وموت خديجة. ففقد النبي والمسلمون نصيران من أكبر النصراء.

فقد النصير الذي وقف في وجه سادة قريش بطغيانهم وعدوانهم، وفقد السيدة التي ناصرت الدعوة وأيدت الرسول وملأت قلبه بالأمن وكانت بلسماً لجراحه، وشفاء لما كان يلم به من حين إلى حين من متاعب الجهاد. فقد أغرى سفهاء قريش بالنبي والمسلمين حتى جرؤ أحدهم فألقى التراب على رأس النبي، فلما دخل النبي إلى بيته ورأته ابنته أخذت تزيله وتبكي فلم يلبث النبي أن قال في إيمان الواثق: «لا تبكِ يا بنية فإن الله مانع أباك والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب».

فلما ضاق الرسول بأمر قريش، خرج إلى الطائف وحده، يدعوهم إلى الإسلام فلم يجد منهم قبولا، بل وجد نكراناً، فقد أساءوا إليه وأدموا قدميه من اثر الحجارة التي قذفوه بها فلجأ إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة فجلس إليه.

هنالك اتجه النبي إلى ربه بقلب المؤمن الواثق في نصر الله وقد تجمعت الأحداث وتعقدت الأمور، يقول كلماته تلك

الرائعة: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني: إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي؛ ولكن عافيتك أوسع لي؛ أعوذ بنـور وجهـك الذي أشرقـت بـه الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من ان ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

وفي نشوة هذا الدعاء وفي ظلال الأحداث عاد النبي ﷺ إلى مكة. قال له رفيقه زيد بن حارثة كيف تدخل عليهم مكة وقد أخرجوك، قال يا زيد: أن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وأن الله ناصر دينه ومظهر نبيه.

ومضى رسول الله في دعوته، وزادت قريش إيذاء للنبي والمسلمين، وأغراها صبره ﷺ وصموده وثباته على المحنة بالاسترسال في أعناتها وغيها. واتجه النبي إلى قبائل العرب في منازلها فأتى كندة، وأتى كليا، واتى بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة، فلم يستمعوا إليه، ولم يردوه رداً جميلاً، وطمع بنو عامر في الأمر لهم فأخذوا يفاوضونه فيما يكون مكانهم إذا هو انتصر، فلما قال لهم: أن الأمر لله يضعه حيث يشاء، انصرفوا عنه.

فهذه القبائل كلها، تقف هذا الموقف وهذه قريش تمعن

في الأذى وتزداد والأمر كله غاية في الدقة ورسول الله يترقب النصرة تجيء من أي مكان. إذن فلا بد من حدث ضخم يملأ نفس النبي بالرضى ويدعم الإيمان ويكشف عن عظمة هذا النبي ومكانته، فكان حادث الإسراء والمعراج.

قالت أم هانيء: أن رسول الله نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر هب رسول الله فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانيء لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه. ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين.

فقلت له: يا نبي الله لا تحدث به الناس فيكذبوك ويؤذوك.

قال: والله لأحدثهموه.

وطار خبر الإسراء والمعراج إلى كل ناد وتحدث به الناس داهشين، بين مصدق ومكذب قالوا: أن العير لتضطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة. أيذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟؟

وذهب الناس إلى أبي بكر يسألونه رأيه في هذا الأمر.

وقال أبو بكر: والله لئن كان قال لقد صدق، أنه ليخبرني الخبر يأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من

ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

وجاء أبو بكر إلى النبي واستمع إليه يصف بيت المقدس، وكان أبو بكر قد ورده فلما أتم النبي صفة المسجد قال أبو بكر: صدقت يا رسول الله.

كان حادث الإسراء والمعراج مصدراً ومقدمة لأمور كثيرة، ودلالة على نقطة تحول في تاريخ الدعوة، فقد أهدى إلى النبي تكريماً بالغ الأهمية في أمرين لم يسبق إليهما نبي مرسل.

الصلاة إماماً بالأنبياء والرسل جميعاً في بيت المقدس.

العروج إلى السموات العلا. وتجاوز سدرة المنتهي، حيث تلقى كلمات من ربه ومن بينها فريضة الصلاة.

وقد كانت هزة الحادث بالغة الأثر في نفوس المسلمين على الـ واء، ثبتت الصادقين وبثت عناصر القوة في نفوسهم وأعدتها لموقف حاسم هو موقف الهجرة وبدء المرحلة الجديدة في بناء الدعوة الإسلامية، وهي بناء المجتمع الإسلامي في يثرب: ذلك أنه لم تكد تمضي على حادث الإسراء شهور قليلة حتى بدأت تباشير الإستجابة من مجتمع «يثرب».

يقول بن شهاب الزهري: إن حادث الإسراء وقع قبل المبعث بخمسة عشر شهراً، وقال بن اسحق أنه كان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً. وقيل قبل الهجرة بعام واحد، يقول

المقريزي: وعورض من قال أنه كان قبل الهجرة بسنة بأن خديجة صلت معه بلا خلاف وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين والصلاة إنما فرضت ليلة الإسراء وأجيب بأن صلاة خديجة كانت غير المكتوبة.

.واصل رسول الله بعد حادث الإسراء دعوته وجاء موسم الحج، فبدأ يلتقي بالقبائل يحدثهم في أمر الإسلام، وعمه أبو لهب وراءه يقول للناس: لا تسمعوا إليه، إنه كذاب، إنه ساحر، إنه كاهن، إنه شاعر، فكان الألباء إذا استمعوا إليه صدّقوه وشهدوا بأنه على الحق لا يحول بينهم قول أبي لهب حتى استمع إليه من يثرب سويد بن الصامت وأياس بن معاذ وهما من أول من لقي النبي في موسم الحج فلما عادا أخبرا قومهما، فأقبل في العام التالي نفر من الخزرج، فلما استمعوا إلى النبي قالوا: هذا والله هو النبي الذي تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فلما انصرفوا إلى قومهم، وافوا الموسم عام قابل وهم إثنا عشر فبايعهم رسول الله بيعة العقبة الأولى وبعث معهم أول سفير في الاسلام مصعب بن عمير.

ولقد أثار حادث «الإسراء والمعراج» جدلاً كثيراً حول إسراء النبي ومعراجه، وهل كان بالروح أم بالجسد ولا شك أن هذا الأمر، لم يكن يحدث ما أحدث في عصر النبي من إنكار المشركين، لو أنه كان أمر رؤيا منامية،ولكن أهميته وخطورته وجلاله تؤكد انه كان بالروح والجسد معاً وأنه

كان من أجل تلقي أخطر فريضة في فرائض الإسلام وهي « الصلاة ».

وأن تكريم الله سبحانه وتعالى لنبيه في رحلتين (الأولى) من مكة إلى بيت المقدس هي « الإسراء »، و (التالية) من بيت المقدس إلى السماء هي « المعراج » ليحمل أكثر من دلالة وعبرة، ويكشف مع تطور العلم الحديث عن حقائق جديدة، فما كان عسيراً على الفهم عن طريق العقل في أمر معراج النبي، يصبح اليوم مع تقدم العلم مقبولاً ويسيراً على الفهم والاعتقاد.

هذا كله بالاضافة إلى الدلالات التي نستخلصها من عبرة الإسراء والمعراج، يؤكد أن يكون هذا الحادث قد تم للنبي ﷺ بالروح والجسد معاً.



(٥)

الهجرة: من الدعوة إلى الدولة

بسم الله الرحيم الرحيم: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين «الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني أثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم» سورة التوبة.

طلائع أهل يثرب:

كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج، يتطلع إلى أفق جديد يكسر به جمود الدعوة في مكة ويفتح به الطريق إلى النصر، فقصد إلى الطائف، واتصل بقبائل كنده وبنو عامر بن صعصعه، لقد استعصت مكة والطائف وقبائل العرب عن أن تحمل الدعوة العالمية إلى البشرية وجاءت البشريات من قبل يثرب، حين جاء هؤلاء

النفر، في السنة العاشرة للبعثة فالتقوا به عند الكعبة، وعرض عليهم النبي مبادىء الإسلام، غاية الوضوح والسماحة والعدل، فلبوا وأعلنوا إسلامهم ووعدوا بأنهم سينشرون الدعوة حين عودتهم إلى يثرب وفي السنة التالية، جاء اثنا عشر رجلا من بينهم الستة الذين أسلموا من قبل، جاءوا هذه المرة ليبايعوا الرسول عليه السلام ومعهم أرسل الرسول مصعب بن عمير الذي ملأ أندية يثرب بالقرآن وحرك به أفئدة الناس واستجابت له الأوس والخزرج، فلما كان العام الثالث قدم ثلاث وسبعون رجلاً وامرأتين، أقبلوا في ظلام الليل بإرادتهم الكاملة يبايعون البيعة الكبرى.

ووقف العباس بن عبدالمطلب عم النبي وتحدث في أهل يثرب وقال:

« إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه وهو في عزة من قومه ومنعة في بلده وقد أبى إلا الانحياز اليكم واللحاق بكم فإن كنتم وافون له فيما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلتم في ذلك وأن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه » فلم يلبث أهل يثرب أن أعلنوا تصميمهم، وطلبوا إلى النبي أن يأخذ لنفسه وربه ما يشاء من المواثيق، قال النبي ﷺ « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. ».

وجرى الحديث حول مفهوم البيعة وأبدى كل من زعمائهم

موقفه، هنالك تصدى العباس بن عبادة لهم فقال: أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل، أنكم تبايعون هذا الرجل، على حرب الأحمر والأسود من الناس، فأن كنتم ترون أنكم إذا انهكت أموالكم مصيبة واشرافكم قتلا، أسلمتموه فمن الآن فدعوه، فهو والله أن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وأن كنتم ترون أنتم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة، هنالك بايع القوم النبي ومدوا إليه أيديهم في جوف الليل في شعاب العقبة وكان النبي قد أمر ألا يوقظ من كان نائماً، حتى لا تكون البيعة من أحد دون رضاه، وعاد القوم إلى رحالهم وفي الصباح كانت قريش قد علمت بأمر البيعة فأزعجها ذلك أيما ازعاج ومضت تدبر خطة للقضاء على النبي حتى لا يقدَّر للدعوة أن تصل إلى آفاقها الجديدة خارج مكة.

وعاد أهل يثرب إلى مدينتهم، وأذن النبي للمسلمين في الهجرة فكانوا يخرجون متخفين جماعات ووحدانا يمشون بالليل في هذه الشعاب حتى إذا طلع عليهم النهار اختفوا حتى يأتي المساء، ومضى قريب من العام على هجرة المسلمين إلى المدينة وبقي النبي ﷺ في مكة يتابع هذه المعركة الجديدة حيث كانت قريش تصادر من تستطيع مصادرته من الضعفاء أو تستولي على متاعهم بعد هجرتهم، وهاجر كثير من أصحاب النبي حتى جاء أبو بكر يوماً يستأذن النبي في الهجرة، فقال له النبي كلمته الحلوة الرائعة:

لا تعجل: لعل الله يجعل لك صاحباً»

هنالك فكر الصديق وأحس بأن النبي إنما يؤخره ليهاجرا معاً، هنالك أخذ للأمر عدته وجهز دابتين، وأخذ يرتب أمره على هذا النحو..

هجرة النبي:

وأذن الله تبارك وتعالى لنبيه في الهجرة ففي وقت الظهيرة وحر الهاجرة، حيث كان الصديق أبو بكر في داره يلتمس راحة القيلولة سمع وقع خطوات تدنو من الباب أنس منها خطوات الرسول فوثب يقول: ما جاء رسول الله ﷺ إلا لأمر حدث، وقال فداك أبي وأمي، ودخل رسول الله فما كاد يجلس حتى قال لصاحبه: أخرج عني من عندك، قال يا رسول الله هما أبنتاي ثم أضاف: وما ذاك فداك أبي وأمي، قال الرسول: لقد أذن لي في الخروج والهجرة فهتف أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال الرسول: الصحبة. وبكى أبو بكر من فرط الغبطة والفرح فقد كان كثيراً ما يستأذن النبي في الهجرة فيقول له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا فطمع أن يحظى بشرف صحبة الرسول، وكان قد بعث يدعو إليه دليلا ثقة مأمونا دفع إليه راحلتين يرعاهما لميعاد موقوت، فلما حانت ساعة الرحيل وقف الرسول على مرتفع هناك فرنا إلى البيت الحرام في خشوع ثم أطل على مكة وقال بصوت متهدج: «والله أنك لأحب بلاد الله إلى الله وأنك لأحب بلاد الله

إلي ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت»

وأخذ المهاجران طريقهما خفية إلى غار في جبل ثور جنوبي مكة حيث بقيا هناك ثلاث ليال ريثما تهدأ المطاردة في أثرهما وقد حام المطاردون مرة أو مرتين حول الغار دون أن يصلوا إلي شيء حتى ليقول أبو بكر للرسول:

ـ يا رسول الله لو أن احدهم نظر تحت اقدامه لرآنا.

فيقول النبي: يا أبا بكر ما ظنك بإثنين الله ثالثهما.

«إلا تنصروه فقد نصره الله»

وفي مساء اليوم الثالث جاء الدليل يسوق الراحلتين وراحلة ثالثة له، فأناخ عند فتحة الغار فخرج الرسول وصاحبه وجاءت أسماء بنت أبي بكر بطعامهما في سفرة وقد فاتها أن تأتي معها برباط تشد به الزاد إلى الرحل فحلت نطاقها فشقته نصفين علقت السفرة بأحدهما وانتطقت بالشق الآخر وسرى الركب في أسفل مكة ممعناً الى الجنوب في طريق غير مألوف ثمة، ثم شقا طريقهما إلى يثرب التي أصبحت بعد المدينة المنورة عبر الطريق الوعرة الساحلية بين مكة والمدينة وهي غير مألوفة ووصل الركب إلى قباء يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول وفي يوم الجمعة الخامس عشر منه غادراها إلى المدينة فبلغها النبي في السادس عشر من ربيع الأول.

المؤامرة:

أوجست قريش خيفة من خروج المسلمين وقد فرغت مكة من المسلمين أو أوشكت وكان عليها أن تسارع في إتخاذ خطة فصممت على أن تفرغ منه قبل أن يفلت منها وفي دار الندوة كانت المؤامرة «ان تختار كل قبيلة منها شابا جلدا نسيبا فتعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إلى محمد ﷺ فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فيتفرق دمه في القبائل فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً وقد تواعدوا على اللقاء سراً لاغتياله في ليلة بعينها من ليالي المحاق قبل أن يهل هلال ربيع وحرس الله تبارك وتعالى نبيه فعميت عنه أبصارهم حتى خرج من بيته في تلك الليلة وهم يتأهبون لقتله متعوذا منهم بآيات ربه ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقحمون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ .

وخابت المؤامرة، أما المتآمرون فقد ظلوا ينتظرون النبي أن يخرج من فراشه في آذان الفجر حتى أصبح الصباح وهم يرقبونه من ثغرة في الحائط حتى تبينوا أن الذي نام في فراش الرسول وتسجى ببرده الأخضر هو علي بن أبي طالب الذي استبقاه النبي ليرد الأمانات إلى أصحابها، هنالك ذهبوا

يبحثون عنه في كل طريق وصال بهم البحث فلما لقوا راعياً إلا سألوه ولا دليلاً إلا استعانوا به، أما النبي وصاحبه فهما في الغار لا يزعجهما شيء، كانت الصلة بالله تبارك وتعالى هي مصدر القوة للمعتصمين بالغار وكانت آيات الله قد أعطت مقامهما رهبة حتى إذا بلغت قريش الغار تبحث عن النبي وصاحبه ردهم عنه ما رأوا من علامات لا تسمح بقبول الرأي القائل بأنهما في داخله.

في الطريق إلى المدينة:

عندما نظر الرسول ﷺ إلى مكة يودعها الوداع الأخير أنزل الله تبارك وتعالى عليه آي القرآن مطمئنا ومبشراً (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) كانت هذه الرحمة مدداً لرحلة طويلة شاقة مليئة بالأخطار والمخاوف وقد جعلت قريش لمن يأتيهم بمحمد مائة ناقة، ثم زادوها أضعافاً مضاعفة مما دفع بعض الطامحين من الفرسان إلى البحث عن النبي.

مضى النبي ومعه الصديق في الطريق إلى يثرب على دابتهما ومعهما الطعام وخمسة آلاف درهم هي كل مال أبي بكر وقد اتخذا طريقا غير الطريق المألوف، سلك إليه بهما دليلهما «عبدالله بن أريقط» متجهاً بهما الى تهامة على مقربة من شاطىء البحر الأحمر، ثم اتجه بهما شمالا في محاذاة الشاطىء مبتعداً عنه.

كان النبي ﷺ وصاحبه يقضيان يومهما على راحلتيهما راضيان يتطلعان إلى رحمة الله وقد كتب لهما التوفيق، حين صد عنهما قريشا وأسلمهما إلى الطريق إلى وجه جديد من وجوه دعوة الإسلام أكثر خيراً وأعز نصراً.

كانت عواطف كثيرة تعتلج في صدر النبي ﷺ فلما نزل عليه القرآن اطمأن إلى النصر واطمأن إلى العودة إلى مكة وقد عاد بعد ست معتمراً وبعد سبع فاتحاً، مظفرا، دون أن يريق قطرة دم، ساجداً على ناقته القصواء حتى دخل مكة.

كذلك كان النبي على طـريـق يثرب وقد أخرجه قومه متخفياً، يعرج بعيداً عن الطريق وأبو بكر معه يسير ساعة أمامه وساعة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عـن يسـاره يـرقـب الأحداث ويخشى المباغتة ولكن رسول الله ملىء القلب ثابت الجنان واثق من نصرالله فلا يخاف شيئاً ولا يرهب أمراً.

ومضت أيام الرحلة يسيران بالليل ويعكفان في ضوء النهار فقد كانت بطون تهامة تتلظى بـالقيـظ في النهـار وكـانـت الشمس في الهاجرة ترسل شواظاً من النار فكان عليهما أن يسيرا في أوقات تخف فيها الحرارة ويقل الحر ولم تمض أيام الرحلة الشاقة بين الأكام والوهاد، وبين الرمال والجبال دون أحداث:

فقد علم سراقة بن مالك أن رجالاً ثلاثة في الطريق إلى المدينة وأنه يظن أن يكون بينهما محمد، هنالك أسرع وهو

الفارس الطموح فحمل سلاحه وركب فرسه واندفع إلى طريق يثرب وكان النبي وصاحبه ودليله قد جلسوا إلى ظل شجرة يتناولون بعض ما معهم من طعام حين كانوا من (سراقة) على مرمى البصر قبيل الغروب قال سراقة: لما خرج «رسول الله من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم، فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيت ثلاثة مروا عليَّ آنفاً، إني لأراهم محمد وأصحابه قال: فأومأت إليه بعيني أن اسكت ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، قال: لعله. ثم سكت، ثم مكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرس فقيد لي في بطن الوادي، وأمرت بسلاحي فأعد لي ثم أخذت أقداحي التي استقسم بها، ثم انطلقت فلبست لأمتي (الدرع) فركبت فرسي الذي عثر فسقطت عنه فقمت اتبعه فبينما فرسي يشتد بي عثر فسقطت عنه، فقمت فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي وذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعها كالأعصار فعرفت حين رأيت ذلك أنه منع مني وأنه ظاهر فناديت القوم فقلت: سراقة بن جعشم: أنظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

قال رسول الله لأبي بكر: قـل له. وما تبتغي منا قلت تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك قال أكتب يا أبا بكر،

فكتب لي كتاباً في رقعة ثم ألقاه إلي فأخذته فجعلته في كنانتي، ثم رجعت، حتى إذا كان فتح مكة دنوت من رسول الله وهو على ناقته فرفعت يدي بالكتاب: كتاب النبي لي، قال النبي: هذا يوم وفاء وبر، أدنه، فدنوت منه، فأسلمت.

وفي قول أن سراقه لما أحس بأنه خسر الرهان مع قريش أدناه الرسول وقال هل لك يا سراقة في خير من ذلك: أساور كسرى، فلما فتحت فارس وجاءت ذخائرها، بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سراقة فألبسه أساور كسرى وقال: هذا يوم أداء الأمانة وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي الطريق إلى يثرب لقي رسول الله كثيرون، منهم بريده ابن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه فأسلموا ولقي أوس ابن حجر الأسلمي فحمله النبي على جمل وبعث به غلاماً ليؤديه إلى المدينة ومر رسول الله بخيمتي أم معبد (عاتكة بنت خالد) الخزاعية فقال عندها، وذبحت لهم شاة وطبختها فأكلوا منها.

وبلغ النبي وصاحبه مقام قبيلة بني سهم وجاء إليهما شيخها (بريدة) يحييها هنالك كانت الرحلة قد أوشكت على غايتها.

واقترب النبي صلى الله عليه وصاحبه من يثرب التي كانت تتطلع في شوق إلى وصوله منذ علمت خبر هجرته وقد استبطأوا قدومه فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه

فإذا اشتد عليهم الحر رجعوا حتى كان يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول « على رأس ثلاثة عشر عاماً من بعثته وافى رسول الله المدينة حين اشتد الضحى وكان أول من رأى رسول الله رجل من يهود كان على سطح بيت من بيوت المدينة فنادى بأعلى صوته :

يا بني قيلة: هذا صاحبكم قد أقبل.

فخرج الأنصار بالمهاجرين في سلاحهم فلقوه وهو مع ابي بكر في ظل نخلة وعاد المسلمون يسلمون عليه وأكثرهم لم يره بعد وكان بعضهم يظنه أبو بكر فلما اشتد الحر قام أبو بكر يظل رسول الله بثوب فتحقق الناس حينئذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه لمحة خاطفة عن حادث الهجرة الضخم الكبير الذي أرَّخ به المسلمون ولم يؤرخوا بالمبعث أو يوم بدر أو يوم الفتح، لأن حادث الهجرة كان بمثابة نقطة التحول الحاسم في الصراع العنيد بين الوثنية والتوحيد، وبه دخلت المعركة بين الإسلام والمشركين مرحلتها الفاصلة التي استمرت سبع سنوات حتى أذن الله بالنصر وفتحت مكة أبوابها مرة أخرى لرسول الله والمسلمين. قبيل الهجرة كان قد مضى على مبعث الرسول نحو ثلاثة عشر عاما من الاضطهاد والأذى والحصار والامتحان الشاق، حوصر المسلمون في الشعب وذاقوا عمليات الإبادة والتضييق، وهاجر منهم من هاجر إلى الحبشة

فراراً بدينهم، وجهدت القلة المؤمنة حول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لم تكن الهجرة هروباً ولا ضعفاً ولكنها كانت فتحا واقتحاما وانتصاراً والتماساً لطريق جديد بعد عودة حين جاء يوم يعلنون إيمانهم بالله ويعاهدون النبي على النصرة، وقد جاءت في موعدها بعد إن كان النبي قد كوّن الجيل المسلم والجماعة المسلمة في مكة، التي انصهرت في بوتقة الاضطهاد فأصبحت من بعد قادرة على بناء الدولة الإسلامية ثم انساحت في أرض الله فأقامت الأمة الاسلامية والحضارة الإسلامية في سنوات قليلة لم تتجاوز ثمانين عاماً امتدت خلاله من حدود الصين إلى نهر اللوار في فرنسا. كانت الهجرة أعظم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية فرق الله تبارك وتعالى بها بين عهدين: عهد مكي كان فيه المسلمون مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس وعهد مدني أذن الله تبارك وتعالى فيه بقيام الجماعة الإسلامية ويدل خوفهم أمنا وضعفهم قوة وأيدهم بنصر من عنده فقامت أمتهم إلى يوم القيامة لا تزول.

ولذلك فإن عليهم دوما أن يستلهموا من حادث الهجرة عزما وقوة أسوة بأولئك الذين تركوا أهليهم وأموالهم وبيوتهم في سبيل الله، فأبدلهم الله بها نصراً فقامت دولتهم الإسلامية على الأخوة والعدل والرحمة.

وقد كان رسول الله ﷺ ولا يزال وسيظل النموذج الأسمى والمثل الكامل والقائم أمام كل المجاهدين والمصلحين والنوابغ: قدوة حسنة وأسوة صادقة تبدأ من نقطة حب الرسول إلى المتابعة له على طريق الحق، فنحن ننظر إلى عظمته من خلال قاعدة أساسية هي النبوة وليس البطولة أو العظمة أو العبقرية. ومن حق تاريخ هذا النبي عليكم أن تقرءوه وتتمثلوه في حياتكم الإجتماعية والعلمية فليس هناك مثل أعلى للمسلم بل للإنسان بعامة أعظم من هذا النموذج الكامل الذي وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: لقد كان خلقه القرآن، أن تمثل البطولة في عظيم ما من عظماء التاريخ أو لامع في مجال الكرة أو المسرح أو الغناء لا يستطيع مطلقاً أن ينشىء لهذه الأمة مثلها الأعلى: الذي يدفعها إلى أن تحمل أمانة الحضارة ورسالة الحق.

وما من شك في أن تاريخ الإسلام الحديث قد حفل بثغرات كثيرة عليكم أن تعرفوها، وتصححوها، منها إنكار المعجزات كما ترى في كتاب حياة محمد وإذاعة القصص والأساطير والإسرائيليات كما ترى في (هامش السيرة) أو اتخاذ أسلوب غربي في فهم البطولة أو تصور النبوة على أنها عبقرية أو عظمة بشرية كما ترى في العبقريات.

كذلك فإن سيرة الرسول ﷺ بوقائعها الحقيقة قادرة على تقديم صورة صادقة لشمائل هذا النبي الكريم على أعلى مدى وأعظم عطاء دون تهاويل أو إضافات أو مبالغات ونحن نعرف

أن الإستشراق يهدف إلى انتقاص قدر هذا النبي العظيم في نظر المسلمين من ناحية وحتى تحول هذه الصورة المضطربة دون وصول الصورة الصحيحة والحقيقية إلى عوالم الغرب العطشى إلى ضياء جديد والمتطلع الآن إلى منقذ ومخرج بعد إن سقطت كل الأيدلوجيات وظهر فسادها وعجزت عن أن تعطي الإنسان في الغرب أشواق الروح مع رغبات المادة، في إطار التوجيه الخالص لله تبارك وتعالى خالق كل شيء ومدبر كل شيء ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ .

إن سيرة الرسول ووقائع الهجرة نفسها تكذب نظرية تفسير البطولة الغربية والماركسية فقد استطاع النبي وهو اليتيم الفقير الأمي الذي لم ينشأ في بيئة عريضة أو يتعلم في جامعة أن يقدم للبشرية ذلك المنهج القويم، وقد شاء الله تبارك وتعالى أن يجعله أمياً حتى يكذب اتهام خصومه بأنه نقل من تراث الأقدمين أو أساطير الأولين أو عرف ما في الكتب والأديان القديمة، لقد جاء التفسير الإسلامي للهجرة ليقدم للإنسان تفسيراً صحيحاً صادقاً كوحي والنبوة وإرادة الله العليا من وراء الأحداث بعد أن فشل التفسير المادي والماركسي والليبرالي الذي لم يحقق للبشرية سعادتها.

جاءت الهجرة لتكذب مفاهيم التفسير المادي للتاريخ فقد وقع في الهجرة ما يضاد هذه المقولة، فقد ترك المهاجرون أموالهم ودروهم وتجارتهم وسعوا إلى رضوان الله وطاعته بل لقد خيَّر المشركون صهيباً وبعض المسلمين بين المال واللحاق

بالرسول فزهدوا في المال وآثروا الله ورسوله وجاءت الهجرة لتكذب تفسير الماركسيين لقيام العلاقات والإنسانية على أساس طبيعي، وإن وحدة الطبقة الكادحة هي معيار الأخاء الإنساني وفي الهجرة حصل الأخاء الوثيق الكريم بين المهاجرين والأنصار ليس على أساس طبقي وإنما في ذات الله تبارك وتعالى: إخاء تجاوز مرحلة الواجبات إلى أفق التطوع والإيثار.

﴿للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه. فأولئك هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.

وإذا كانت الماركسية تفسر الدوافع الإنسانية بالإقتصاد والفرويدية تفسره بالجنس فإن الهجرة أبطلت هذه الدعاوى الكاذبة حيث صفى رسول الله ﷺ قلوب ونفوس المهاجرين وجردها من دوافع الإقتصاد والجنس، حين قال:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى

ما هاجر اليه » وبعد فإني أوجه النظر ونحن في مجال دراسة التاريخ أن أعظم التاريخ هو رسالة الأنبياء قادة الإنسانية حملة رسالة الله إلى الخلق، على مدى التاريخ منذ نوح عليه السلام الى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، هؤلاء الذين قدموا الى البشرية الخير والنور والهدى والذين نتجاهلهم حين نتحدث عن أرسطو وأفلاطون ونيتشه ونابليون وماركس وننساهم في حين أنهم هم الذي قدَّروا منهج الله ووطدوا الطريق الى بناء المجتمع الرباني بينما قدم أولئك الذين تختفي بهم أهواء البشرية ومطامعها وضلالها.

وعلى المثقفين والمسلمين أن يدرسوا هذا العمل الضخم العظيم قبل أن يدرسوا تاريخ الأمم والشعوب، ولن يجدوا علم هذا كله إلا في القرآن الكريم الذي حفظ للإنسانية هذا الميراث العظيم:

﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ ... ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾.

لقد أهلَّ عام هجري جديد جدير بأن يلفت أنظارنا إلى تقلب الليل والنهار وتغير الأحوال والأزمان، فنحن الآن على مشارف القرن الخامس عشر الهجري وفي مثل هذا اليوم من العام القادم نكون بإذن الله في عام ١٤٠٠ هجرية الذي يدخل بالإسلام والمسلمين إلى قرن جديد، ومن شأن هذا أن يجعلنا قادرين على مراجعة حساباتنا والتعرف على تاريخنا،

والنظر في التحديات التي تلقاها أمتنا منذ العصر الحديث في مواجهة تحديات النفوذ الاجنبي بأخطاره السياسية والإجتماعية والإقتصادية والتربوية حيث فرضت الأمة الاسلامية لأول مرة في حياتها العريضة أن يلتمس منهجاً غير منهجها في القانون والتربية والإجتماع على نحو أصبحت فيه الذاتية الإسلامية معرضة للإحتواء والإنصهار في بوتقة الأممية والذوبان في العالمية، وهذا أخطر ما يجب مواجهته في هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية، ولن يتحقق ذلك إلا بالتربية: تربية الشخصية الإسلامية والإنسان المسلم في مجال المجتمع تربية تقوم على الأصالة والتماس المنهج الإسلامي من المنابع الأولى، المنابع النقية التي قدمتها رسالة الإسلام ببعثة رسول الله محمد ابن عبدالله ﷺ الى البشرية، وأمامنا الطريق واضحاً ومضيئاً ممثلاً في القرآن الكريم، ذلك النص الثابت الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي سيرة رسول الله ﷺ وشمائله وتصريفه للأمور وعمله في مجال الدعوة وفي حياته الخاصة، والمسلمون اليوم وهم يدخلون عصراً جديداً من إمتلاك الثروة والطاقة والتفوق البشري يجب أن يعرفوا مسئوليتهم الخطيرة تجاه الرسالة التي أنيطت بهم ووكلت إليهم فعليهم تبليغ هذه الرسالة الى البشرية الحائرة التي تتطلع الى ضوء الهدى بعد أن وصلت بها الايدلوجيات والمذاهب المادية غاية التمزق النفسي والتدمير والغربة والقلق، ومن حق رسالة الله علينا أن نبلغها للناس جميعاً ولكن من حقها أيضاً قبل ذلك

أن نكون نحن نموذجاً طيباً لها بأن نطبقها على أنفسنا ومجتمعاتنا، ولن يتقبل الناس منا هذه الرسالة إلا إذا كنا نحن مثلاً أعلى لها ولذلك فإننا نتطلع أن يكون القرن الخامس عشر الهجري هو قرن الإصالة والرشد النفسي والتماس المنابع وتطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع الإسلامي وتنفيذ المناهج التربوية الإسلامية على الفرد والمجتمع وفي عالم الأسرة والمرأة وذلك بعد أن مر القرن الرابع عشر كله في مقاومة النفوذ الأجنبي الذي سيطر على العالم الاسلامي وهي مقاومة صامدة ضخمه قام بها المسلمون في مختلف أجزاء الوطن الإسلامي ضحُّوا فيها بأرواحهم وما يملكون في سبيل الدفاع عن البيضة والذود عن الأرض والعقيدة، ويجب أن نذكر إن غرة القرن الخامس عشر الهجري، جديرة بأن تكون موضع تقدير حين يكتب التاريخ مسئولية هذا الجيل في وضع لبنة جديدة في هذا البناء الضخم، بناء الأمة الإسلامية، الأمة الخاتمة التي شرفها الحق تبارك وتعالى بأن جعل محمد ﷺ منها وحملها أمانة الاسلام خاتماً لرسالات السماء وأنزل عليها القرآن خاتم الكتب ومهيمناً عليها وقد وصل الاسلام في مفتتح القرن الخامس عشر إلى كل من أركان القارات الخمس بل ودخل كل مدينة واقيمت المآذن في كل أرض وبلغ المسلمون ألف مليون ممن يقولون لا إله إلا الله هم ربع سكان العالم وبلغ حجيجهم هذا العام مليونان وأصبحوا الفئة الثانية بعد سكان البلاد الأصليين في انجلترا وفرنسا وألمانيا وفي الولايات المتحدة

لا تشرق الشمس كل يوم الا على مسلم جديد ، هذه هي عبرة الهجرة، ومطالعها، وأضوائها، تحمل إلى قلوبكم نور القرآن وهدي الإسلام فاليكم التهنئة الخالصة بعام جديد تقدمون فيه لربكم ودينكم وأمتكم مزيداً من العمل الخالص الصادق باذن الله والله تبارك وتعالى من وراء القصد.



(٦)

٢٠ رمضان وفتح مكة

منذ أن أذن الله لرسوله في الهجرة من مكة إلى المدينة. كان ذلك علامة على مرحلة جديدة في الدعوة الإسلامية هي مرحلة بناء المجتمع الإسلامي. بعد أن كانت فترة ثلاثة عشر عاماً في مكة مرحلة بناء الفرد المسلم. وفي المدينة خلال ست سنوات كاملة قامت الدولة الإسلامية الجديدة بقيادة محمد ﷺ نبياً وقائداً وحاكماً وإماماً. جامعاً جاع الإسلام نفسه لمفهوم الأمة والدولة.

وفي خلال هذه السنوات وقعت بين المسلمين وخصومهم من قريش واليهود والذين لم يدخلوا الإسلام وقائع: بدر الكبرى، وأحد، والخندق، وفيما بين هذه المواقع الكبرى لم ينقطع سيل السرايا، وقدَّم المسلمون أنفسهم وأرواحهم مجاهدين وشهداء في سبيل إعلاء كلمة الله وتركيز لواء الإسلام في الجزيرة العربية بحسبانها المنطلق الأول للدعوة الإسلامية إلى العالم كله. واستقر أمر الله وأمر دعوته بالمدينة

ولم يكن من اليسير على قريش أن تترك المسلمين دون أن تدبر لهم كيداً ورسول الله بالمدينة حذر يقظ يبث عيونه في أطراف شبه الجزيرة تنقل إليه من أمرها كل صغير وكبير.

وكانت الدعوة الإسلامية تلاقي خصومة يهود. وخصومة قريش. وخصومة قبائل عطفان وهذيل وبني مرة وفزارة وأشجع وسليم التي خرجت جميعاً في موقعة الأحزاب - الخندق - فهزمها صمود المسلمين داخل المدينة بعد عشرين ليلة. وتتابعت الأحداث حتى أذن رسول الله بالحج إستجابة لما في نفوس المهاجرين من حنين الى مكة وما في نفوس الأنصار من شوق إلى بيت الله الحرام. وأرسل النبي إلى القبائل يدعوها للإشتراك معه، وساق المسلمون الهدى أمامهم علامة السلام والحج. لا الحرب والقتال. وسار عليه السلام في ألف وأربعمائة إلى مكة ملبين بالعمرة وتأهبت قريش لمنع النبي وصحبه من دخول مكة.

وفي ثنية المزار بركت ناقة رسول الله «القصواء» وقال الرسول: «إنما حبسها حابس الفيل من مكة. لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ونزل الناس ودارت الرسل بين المعسكر وانتهت باتفاق موقع هو «صلح الحديبية» اعترفت فيه قريش لأول مرة بالمسلمين. وتقرر فيه أن يرجع المسلمون في عامهم هذا ويعودوا في عام قادم فيطوفوا بالبيت وعاد المسلمون في عمرة القضاء. فدخلوا مكة بعد أن أخلاها أهلها وحقق هذا للمسلمين نصراً لا حد

له فقد انكسر اليهود في خيبر وأعلن النبي دعوته إلى الملوك والأمراء في الجزيرة وخارجها فأرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني بالحيرة والحميري باليمن ونجاشي الحبشة يدعوهم إلى الإسلام. وأسلم إذ ذاك شباب مكة الذين تكشفت لهم الأمور. فأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. وقال خالد كلمته: «لقد استبان لكل ذي لب أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر. وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذي لب أن يتبعه».

غير أن قريشاً ما لبثت أن نقضت صلح «الحديبية» إذ حاولت بنو بكر حليفة قريش في الصلح ان تنال من خزاعة حليفة المسلمين. وأذّن رسول الله في القبائل بالتأهب دون أن تعزف الوجه وأوفدت قريش أبا سفيان زعيمها إلى المدينة ليزيد في مدة العقد. فلم يجد الى رسول الله منفذاً أو نصيراً حتى ان ابنته وزوجُ النبي خذلته وطوت فراش رسول الله عنه. وتجهز المسلمون دون أن يعرفوا الى أين. وضبط علي بن أبي طالب خطاب حاطب بن أبي بلتعة الى أهل مكة ينبئهم بتجهيز رسول الله. وزحف الجيش وهو لا يعرف وجهته. بل يمضي في طريقه بأمر قائده. وقد اشتركت فيه قبائل «سليم ومزينة وغطفان» فامتلأ بهم الوادي وعلى رأس هذه الكتائب رسول الله يبغي فتح مكة ويسأل ربه أن يأخذ عليهم العيون حتى يأتيهم بغتة. وأن يحقق له أمره دون أن يريق قطرة دم واحدة وقد بلغ «مر الظهران» فنزل بها واوقد النار وضربت

خيام ألف فارس بها وأوقد النار وضربت القباب في الوادي فأمسى مهيباً رهيباً. وخرج زعيم قريش «أبو سفيان» يلتمس «خزاعة» وقد ظن أنها جاءت تحاربهم فلما بلغ المعسكر عرف أنه رسول الله والمسلمون وحاول «عمر» أن يقتله لولا أن أمّنه الرسول. وأذن للعباس أن يذهب به إلى رحله حتى الصباح.

واستعصت شهادة الإسلام على أبي سفيان فما نطق بها إلا بعد أن وقف يستعرض هذه الكتائب والنجائب وقد أرهبه أمرها وهزه من الأعماق حتى سأل العباس في لهفة ودهشة: «لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً».

فقال له العباس: ليس هو الملك ولكنها النبوة.

وقد استجاب رسول الله لناحية الفخر والزعامة في نفس أبي سفيان فأعلن: «من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبو سفيان فهو آمن» وعاد أبو سفيان إلى مكة مسرعاً يحمل لأهلها خبر زحف محمد عليها ويحدثهم بأنه قد جاءهم بما لا قبل لهم به.

ودخل رسول الله مكة يوم «٢٠ رمضان» دون أن تلقى جيوشه مقاومة تذكر. وبعد أن سجد لربه فوق دابته شاكراً أن فتح عليه مكة دون أن يراق فيها دم وآوى إلى خيمته التي ضربت له في البطحاء وذكر رسول الله وذكر المسلمون كيف أخرجوا من مكة مهاجرين منذ ثمانية أعوام. بعد أن

اضطهدهم أهلها وكيف عادوا اليوم وقد كتب الله لهم النصر والفتح.

وخرج رسول الله فامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعاً ثم وقف على باب الكعبة ووقفت قريش تسمع كلمة النبي وهي التي أذته واخرجته ولم تدع مكيدة في سبيل تحطيم دعوته إلا اقترفتها. ثم كيف مكرت بالمسلمين في أحد والخندق. ولكن رسول الله كان عفواً صفوحاً كريماً:

قال: يا معشر قريش: ما ترون اني فاعل بكم.

قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم.

قال النبي: اذهبوا فانتم الطلقاء.

وهكذا صدر العفو العام من القائد العام بعد أن مكن الله له من العدو وحطم رسول الله الأصنام من حول الكعبة وأزال الصور. وعرف في الأنصار مخافة فقال لهم ما طمأنهم «المحيا محياكم والمات مماتكم» وأذّن بلال فوق الكعبة وصلى الناس خلف الرسول وقال بعد كلمته الخالدة «أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، أو يعضد منها شجراً، ولم تحلل لأحد من قبلي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة، ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب أول هكذا كان يوم ٢٠ رمضان عام ثمان من الهجرة. «عام الفتح».

(٧)

خطبة الوداع

وثيقة الرسول الخالدة

كلما جاء شهر ذي الحجة وهلت مواقيت الحج، تألقت صفحة من تاريخ الإسلام، ووقفة من وقفات الرسول ﷺ، وصيحة متجددة فوق عرفات رددتها الأجيال، واستمعت إليها الإنسانية، وهو يعلن وثيقة حقوق الإنسان قبل أن تعرفها أمم ودول وحضارات كثيرة. كان ذلك في ختام حياة الرسول الكريم وبعد ثلاثة وعشرين عاما من بعثته الشريفة وقبيل أن يلحق بالرفيق الأعلى علامة على تأكيد معان كثيرة والتركيز على قيم أساسية لعصر الإنسانية الأكبر الذي سار فيه المصلحون واهتدت به الحضارات والتمست أوربا في نهضتها قبسا من هديه كان مصدراً ليقظتها.

وبالجملة فقد كان قوام هذه الوثيقة الخالدة:

« تحرير الإنسان »

فقد كان الرجل من أهل الملل السابقة تحت وصاية الكهنة ولم يكن ينقض أمراً أو يبرمه إلا بأقرار رجال الدين عليه

فجاء الإسلام ليفتح الطريق إلى الصلة بينه وبين خالقه دون وساطة وكان الناس قبل الإسلام وسادة وعبيد، فلما جاء الإسلام قرر أن الناس كلهم سواء أبوهم آدم وأمهم حواء، لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

وقرر أن العقل مناط التكليف ومحك التمييز بين الحق والباطل، وحرر العقول من أسر العقائد الباطلة، في غير ذلة واستكانة وانصراف عن الحياة.

كما قرر أن الدين ليس عدوا للمدنية وأباح لمتبعيه البحث والنظر وطالب بالتمسك بالدليل وكره التمسك بالتقليد.

فكانت هذه الأصول قاعدة بناء الحضارة الإسلامية الإنسانية وكان خطاب النبي في حجة الوداع إيذاناً للمسلمين بالإنطلاق من قلب الجزيرة العربية إلى خارجها لبناء المجتمع الإسلامي الكبير. فلم يكد ينقضي أقل من قرن من الزمان حتى قامت دولة الإسلام شامخة من حدود الصين في قلب آسيا إلى حدود فرنسا في قلب أوربا... لقد كانت كلمة الرسول الخاتمة في حجة الوداع من عرفات دعوة إنسانية علمية على الطريق المفتوح إلى بناء المجتمع الاسلامي الجديد الذي أقامه «الإسلام» وحدد دعائمه وقيمه: «القرآن».

وما تزال خطبة الوداع بهذا المفهوم الإنساني من جوامع الكلم الحاسمة التي عاشت تدوي في سمع الدنيا متجدد تكشف معالم إنسانية الإسلام والقيم الأساسية الخالدة للحق والعدل

والحرية. وقد مضت وهـي مـدد للبشريـة كلهـا مـن بعـد ومصدراً من مصادر الضياء وبرهاناً لنا على ما حققته الإنسانية حتى اليوم من كرامة للإنسان وحرية للفرد ورعاية للأسرة وضبط للمجتمع.

لقد حسم خطاب الوداع عدة قضايا كبرى هامة كانت منذ أربعة عشر قرنا غريبة وخطيرة على دنيا تطفح بالأحقاد والمطامع والظلم والعبودية، فأضاءت كلمات رسول الله المستمدة من كلمات الله جل وعلا في القرآن، للإنسان طريقاً جديداً ما تزال الدنيا حتى يومنا هذا تسير فيه وتنشد تحقيقه، وتسعى إليه وتجهد في سبيل إقراره: ذلك هو تحرير الإنسان من قيوده وأغلاله، قيود نفسه وأغلال المظالم في الدماء والأموال والأعراض.

كان الخطاب فيصلاً واضحا بين عهد وعهد، بين الماضي بظلماته والمستقبل المطل بالإسلام الذي بعث به رسول بالحق للإنسانية، في وقت أصبحت أهلاً لتقبله دينا خالدا للبشرية كلها في كل زمان ومكان وختاماً لكل رسالات السماء فكان خطاب النبي طياً لحياة لها طابعها المشرب بالرياء والدماء، وظلم الناس وتصفية المرأة، وتوسيداً لعصر جديد له طابعه وقيمه ومفاهيمه من الحرية والحق والعدل.

هذه القيم المختلفة التي تختلف تمام الإختلاف عما قبلها، واضحة الدلالة على أن الإنسانية قد أخذت تنتقل إلى مرحلة

« الكرامة الانسانية » تقديراً للإنسان وإعلانـا لسيـادتـه على الكون تحت حكم الله.

وتكشف نصوص الوثيقة هذه المعاني في وضوح.

أيها الناس: إني والله ما أدري لعلي لا ألقاكم بمكاني هذا، بعد يومكم هذا، رحم الله إمرءاً سمع مقالتي فوعاهـا فـرب حامل فقه إلى من لافقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

واعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا. في شهـركم هـذا، واعلمـوا أن الصـدور لا تغـل على ثلاث[1].

إخلاص العمل لله ومناصحة أهل الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم[2].

إلا أن كل دماء الجاهلية أضع دم اياس بن ربيعة بن الحارس[3].

الا ان كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع وأول دماء الجاهلية أضع دم اياس بن ربيعة بن الحارث[3].

---

(١) أي لا يدخلها الغـل والشحناء والحقد.

(٢) أي تحدق بهم فتمنعهم وتحفظهم.

(٣) وكان مسترضعا في بني سعد بـن بكـر فقتلتـه هـذيـل وهـو مـن آل عبدالمطلب.

وربا الجاهلية موضوع كله. وأول ربا أضعه ربا العباس ابن عبدالمطلب.

اتقوا الله في النساء. إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وأن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فاضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما أن تضلوا بعده إذا اعتصمتم به: «كتاب الله وسنة رسوله»؛ وأنتم مسئولون عني، فما أنتم قائلون.

قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ثم قال وهو يرفع أصبعه السبابة يشير إلى السماء يرفعها ويكبها ثلاث:

اللهم اشهد، اللهم أشهد، اللهم أشهد.

وهكذا حسم الرسول ﷺ في اللحظات الفاصلة الموقف كله بين عصر وعصر، بين الجاهلية منطوية والإسلام متفتحاً منطلقا الى آفاق الأرض، بمفهوم السماء وصيحة الإنسانية وفي هذه الكلمات الموجزة العبارة قدم الرسول ﷺ الأصول الأصلية لحقوق الإنسان فوضع الدماء وبدأ ببني هاشم ووضع الربا وبدأ ببني هاشم وقضى على النظام الجاهلي كله وحطم قوائم المجتمع القديم في الإقتصاد والإجتماع والأخلاق حين

حرر الإنسان من الربا والثأر وحرر المرأة من أغلال الرجل وعلم المجتمع وأهلها للكرامة التي تستطيع من خلالها أن تنشىء الأجيال الجديدة المؤمنة الحرة.

حسم الرسول في خطابه أمر (الربا) على النحو الذي أقره القرآن، وأهدر أول ما أهدر ربا عمه العباس بن عبدالمطلب وبذلك فتح أمام الإنسانية نظاما اقتصاديا متحررا من المرابين ومن مظالم المضاعفات المضاعفة وقد قطع الإسلام في أمر الربا على نحو بين فلم يترك فيه بابا يمكن أن يحتال منه الإستغلال.

ويستطيع الباحثون أن يقدروا عبرة هذا الحسم اليوم على نحو أشد وضوحا ويقدروا النتائج الخطيرة التي ترتبت على إقرار الإسلام لهذا الأمر ومدى ما يمكن أن يحقق للإنسانية لو أنها اهتدت به، وما تخلف المسلمون في فترات تخلفها إلا بتجاهلهم نهج الإسلام، فكان ذلك من العوامل الهامة التي أدت إلى انهيار قوتهم. وذهاب دولتهم وتسلط القوى الأجنبية عليهم وإغرائهم بالتعامل الربوي مما مكّن المرابين من وضع أيديهم على مقدرات المسلمين في أماكن كثيرة.

وقد عرض كثير من الباحثين العالميين لقضية الربا على ضوء التجربة التي واجهها العالم في العصر الحديث وكشفوا عن مدى الخطر الذي يواجه الإنسانية نتيجة استشراء هذا النظام الإقتصادي، كما كشفوا عن مدى الأمن والكراهة في أسلوب الاسلام الإقتصادي حيث أحل الله البيع وحرم الربا وفتح

باب دائرة الإنفاق الخيرة والتعاون والقرض الحسن وغيره من أساليب الإسلام واليوم وبالرغم من إضطرار الدول الإسلامية إلى تقبل الأنظمة الغربية التي تجعل الربا أساسا لأنظمة البنوك والمصارف فإن المسلمين ما زالوا يتطلعون إلى نظام جديد يكفل لهم حفظ ثرواتهم من المرابين والمصارف الأجنبية عن طريق الضغوط التي تقوم بها القوى الاستعمارية ومن ورائها الصهيونية الراغبة في تدمير النظم الاقتصادية في العالم الإسلامي.

ويبدو اليوم مدى أهمية الحسم الواضح في خطاب الرسول بشأن قضية المرأة والأسرة وتأكيده لحقوق المرأة والأسره.

وهنا موضع العجب والتقدير فإن المرأة في العالم كله خلال الفترة التي أعلن فيها رسول الله دعوة الإسلام لتكريم المرأة وتقدير حقوقها، كانت المرأة تلقى عنتاً لا حد له وظلما بعيد المدى حيث لم يكن لها وجود قائم.

فجاء الاسلام ليكسب المرأة حقوقا لم تعترف بها أوربا إلا بعد أكثر من عشرة قرون، بينما أعلن الإسلام هذه الحقوق وطبقها المسلمون منذ أربعة عشر قرنا، مما فتح للمرأة المسلمة الطريق إلى مكانة عليا في المجتمع والحياة العامة فكانت فقيهة ومحاربة ومعلمة، وحيث كانت المرأة في الغرب وفي غير عالم الإسلام لا تجد شخصيتها بعد زواجها فقد ظلت المرأة المسلمة متمتعة بعد زواجها بجميع الحقوق التي يكسبها القانون

الإسلامي لها، فلها الحق في أن تتصرف في ثروتها فإذا كانت تاجرة فإن ربحها لنفسها من غير أن يكون لزوجها أقل نصيب منه أو دخل في ذلك الكسب. فاذا هجرها الزوج أو أساء معاملتها فلها الحق في طلب الطلاق كما أن لها الحق في نفقة تتناسب مع حاجتها ومورد زوجها، وما من جانب من جوانب حياة المرأة إلا وقال الإسلام فيه الكلمة الفاصلة التي ردت على المرأة كرامتها وقيمتها.

هذه بعض الأصول العامة التي تناولها خطاب الوداع ومن خلال هذه التعاليم التي اتجهت إلى تحرير الإنسان استطاعت أوربا أن تنهض نهضتها عندما اقتربت منها هذه التعاليم عن طريق الأندلس والحروب الصليبية وغيرها من الوسائط.

لقد كان لهذه التعاليم أبعد الأثر في حياة العالم مشرقه ومغربه، فقد هزمت دعائم الظلم والإستبداد في دعامتين كبيرتين حمل لواء أحداهما (لوثر وكلفن) ثم كانت الثورة الفرنسية تأكيدا لمفاهيم الإسلام في الحرية والمساواة وتحقيقاً لها، فقد دعا لوثر إلى تحرير العلاقة بين الإنسان وبين الله وتجريدها من وساطات الوسطاء وذلك هو مفهوم الإسلام أساسا وكانت الثورة الفرنسية محاولة لتطبيق مفاهيم الإسلام التي نقلها فلاسفة أوربا وبخاصة فيما يتعلق بالحكم والشورى والعدالة والمساواة، بل لقد قامت حضارة أوربا أساساً على قاعدة «المنهج العلمي التجريبي» الذي أبدعه المسلمون إستمداداً من الإسلام ومن دعوة القرآن إلى النظر في الآفاق.

وقد جاءت خطبة الوداع في النهاية بذلك القانون الشامل الذي دعا الرسول المسلمين إلى أن يلتمسوه دائما ويتمسكوا به وذلك ما عبر عنه ﷺ حين قال:

« تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي أبداً ما اعتصمتم به: كتاب الله وسنة رسوله » وهي دعوة من الرسول متجددة بنى المسلمون عليها نهضاتهم دوما بعد كل « هـزيمة ونكسـة »، وأعادوا التماس مفهومه في مواجهة كل أزمة وحدث كبير، كانوا كذلـك في مـواجهـة الغـزو الصليبي وحملات التتـار، وزحوف الفرنجة وكان ذلك عاملاً هاما في كسب النصر الذي حققوه في مواقع حطين وعين جالوت والزلافة وهي مواقع فاصلة مع الغزو الذي فرضه أعداؤهم. ونحن اليوم نجد في هذا القانون قاعدة لنا إلى النصر بإذن الله.

(٨)

إذا جاء نصر الله والفتح

قبل أن يختار رسول الله ﷺ الرفيق الأعلى كانت جزيرة العرب قد دانت للإسلام وأذعنت لكلمة التوحيد وتأهبت لمرحلة الإنتشار والتوسع إلى آفاق العالمين تحقيقاً لدعوة الإسلام بنفسه الذي جاء للبشرية كلها فكان على أهله ومعتنقيه أن يذيعوه في أنحاء الأرض وأن يزيلوا كل عقبة في سبيل بلاغه وامتداده. ولقد كانت هذه الصفوة من المؤمنين الذي رباهم النبي في مكة ثلاثة عشر سنة وشكل نفسياتهم وأرواحهم على أن يكونوا جند الله قد أصبحوا على رأس تلك الجيوش التي انطلقت في وجه حركة الردة التي انتقضت في وجه الإسلام بعد رسول الله، فكانت تلك الجولة الظافرة التي تدافعت قواها إلى الشمال للقضاء على المؤامرات التي كان يجري تدبيرها للزحف على الجزيرة العربية من ناحية الروم ومن والاها من خصوم الاسلام للقضاء على بيضة الاسلام.

ولقد كانت جبهة الشمال موضع تقدير الرسول ﷺ في

أكثر من موقف وإليها زحفت كتائب المسلمين في غزوة تبوك، وتدفقت جيوش المسلمين في غزوة مؤته وكانت راية أسامة منصوبة أمام المسجد أبان مرض النبي ﷺ وكانت من كلماته الحاسمة الأخيرة:

«أنفذوا بعث أسامة».

كل ذلك كان يوحي بالطريق ويومىء إلى الخطر وقد كانت دعوة الإسلام منذ يومها الأول قد أخذت نفسها أنها لا ترفع في وجه العدو سلاحاً إلا إذا حال بينها وبين طريقها الذي تشقه فإذا تآمرت القوى لتسد هذا الطريق كان على المسلمين أن ينبذوا إليهم على سواء.

ولم تكن الشام والعراق إلا امتداداً للجزيرة العربية وما كان أهلها إلا عرباً هاجروا منذ أزمان متفاوتة تلك الهجرات المعروفة التي قامت بها القبائل العربية منداحة على ساحل البحر الأبيض إلى الشام ومصر وأفريقية وكان لا بد أن تصل رسالة الاسلام إلى هذه القبائل التي سمعت بالدعوة وعرفت عنها وكانت رسائل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الملوك والأمراء قد شملت الحبشة وفارس والروم ومصر جميعاً واستقبل كثير منها بالتقدير وبعضها بالتحفظ، وكانت فارس والروم على مشارف الجزيرة هما المنطلق الطبيعي لحركة الإسلام فكان على المسلمين أن تبلغهما الدعوة الجديدة حتى إذا دخلا فيها قبل منهم المسلمون ذلك أو إذا عارضوه كان عليهم أن يدفعوا

الجزيـة، وإلا كـان القتـال، وذلـك مـا وقـع بـالفعــل: فقد دخل المسلمون الحرب مع الأمبراطوريتين الكبيرتين في وقت واحد وشق الإسلام طريقه حتى بلغ عاصمة فارس، وأزال سلطان كسرى وأقام بديلا منه كلمة التوحيد، وفي الجانب الآخر حرر الشام وبيت المقدس ومصر وأزال عنها سلطان الروم، ثم زحف غرباً حتى وصل حدود شمال أفريقيا محرراً إياها من نفوذ الروم مقيماً فيها نظام القرآن وشرعة العدل دون أن يقسر أحداً على الدخول في الإسلام الا اذا قبله واقتنع به، ولقـد استقبلـت جيـوش المسلمين بـالفـرح والرضى في كل أرض حين أزالت العبودية والظلم والقسوة والفساد وأحلت بديلاً عنها العدل والرحمة والأخاء وتركت للناس أمر دينهم وعقائدهم وإن أقامت بينهم نظم كرامة الإنسان وألغت فوارق اللون والجنس ومنحت الناس الحرية والمعرفة فدخل الناس في دين الله أفواجاً.

وهكذا كانت حركة الفتح الإسلامية نموذجاً فريداً لم تعرفه الأمبراطوريات الرومانية والفارسية والفرعونية القديمة ولم تعرفه حضارات الغرب في استعمارها الحديث حيث قدمت للبشرية تلك الصورة الباهـرة مـن العـدل والسماحـة والرحمة والإيمان.

ذلك أن الفتح الإسلامي لم يكن يستهدف السيطرة على الثروات أو استعباد النـاس أو احتـواء الأمـم في أقطـارهـا وعقائدها ولكنه كان يستهدف تحقيق العدل ورفع العبودية

وإعادة كرامة الإنسان الذي كرمته الأديان والذي استخلفه الله في الأرض ليكون سيداً لا يعرف العبودية إلا لربه ولا يقبل الذلة لغيره من البشر.

تلك هي رسالة الإسلام التي حملها حين تدافعت قواته شرقاً وغرباً حتى وصلت حدود الصين وعبرت مضيق جبل طارق حتى وصلت نهر اللوار ثم تقدمت من الشام بعد حتى وصلت أسوار فينا، وأعلنت كلمة العدل والأخاء الإنساني في هذا المحيط الواسع من الأرض والناس في ثلاث قارات العالم الكبرى: آسيا وأفريقيا وأوروبا وقد استطاعت في جولتها الأولى أن تصل ما بين الصين وفرنسا في أقل من سبعين عاماً على نحو ما يزال يدهش المؤرخين ويذهل الباحثين الذين يقيسون الأمور إلى الامبراطورية الرومانية التي لم تستطع أن تصل إلى أقل من ذلك إلا في ألف عام.

فضلا عما عرفت عنه معارك المسلمين في التاريخ كله إذ كانوا قلة في العدد والعدة بالنسبة لأعدائهم بينما كتب لهم الانتصار بتلك القوى القليلة على الجيوش الضخمة العاتية وتلك ايضاً مما يدهش الذين يقيسون حركات الإسلام بمقاييس القدرات المادية وحدها وينسون القدرات النفسية والمعنوية والروحية التي يدفع إليها الإيمان بالله والثقة في نصره، وتلك العقيدة التي تؤمن بالموت في سبيل الله وتراه أعظم مطامحها وأجلّ رغائبها، وتلك الرسالة التي عاهد

المسلمون ربهم ونبيهم على تبليغها وإذاعتها في العالمين وما يتصل بذلك من مفهوم الجهاد في سبيل الله وهو أعلى العقائد وذروة سنام الإسلام.

فعلى الذين يحللون ظاهرة الفتح الإسلامي أن يأخذوا في إعتبارهم هذه المعاني ولا يجعلون من التفسير المادي للتاريخ أسلوباً أو منهجاً لفهم حركة الإسلام فيعزون خروج المسلمين من الجزيرة العربية من أجل الفقر أو من أجل البحث عن الرزق، ولا يدَّعون أن الأمبراطورتين قد ضعفتا ولذلك سرعان ما سقطتا في أيدي المسلمين فإن ذلك كله من التفسيرات المبطلة التي تحاول أن تقلل من عظمة معجزة الفتح الكبرى التي لا مثيل لها في تاريخ البشرية كلها.

ذلك أن الإسلام إنما جاء ليكون خاتم الرسالات: صيحة مدوية في وجه الوثنية فسرعان ما دمر قواعدها وأطفأ نيران المجوس وقضى على عبدة الكواكب، غير الموحدين من الأثنينة والمعددين، وكان في نفس الوقت إعصاراً في وجه العبودية الظالمة التي عاشتها حضارات الفراعنة والهنود والروم والفرس حيث لم يكن الإنسان إلا عبداً ذليلا لا يسمح له أي قانون أو عرف أو نظام أن ينتقل من طبقة الأرقاء إلى طبقة السادة: هذه الطبقة الموروثة المغلقة التي دافع عنها أفلاطون وارسطو حتى قال أحدهم أن العبد إذا وضع موضع السيد فسيظل عبداً ولا بد أن يعود عبداً. تلك هي معجزة الفتح الاسلامي التي تدافعت بعد الخروج من الجزيرة العربية، دعوة

إلى التوحيد في وجه الوثنية والإخاء الإنساني في وجه العبودية، وهذا هو سر المعجزة التي أذهلت المؤرخين والباحثين: ذلك أنها دعوة الفطرة التي أراد الله بها أن يرفع الأصر عن البشرية والأغلال التي وضعتها فلسفات البشر ومذاهبهم خروجاً عن دعوة الرسل والأنبياء المبلغة المستمرة التي لم تتوقف (وأن من أمة إلا خلا فيها نذير).

ولقد كانت حركة الفتوح الإسلامية التي امتدت خارج الجزيرة العربية حركة دفاعية محضة في وجه المؤامرة على خنق الإسلام داخل الجزيرة والقضاء عليه وكانت مؤامرات خصوم الإسلام قد انكشفت للرسول ﷺ وزادت حدة في مؤامرة الردة استهدافاً للقضاء على الدين الناشىء، فكانت حركة الفتح بحق كما عبر عنها أحد المؤرخين حركة سياسية وحركة اضطرارية اندفع إليها المسلمون بحق حماية النفس، وهي على هذا النحو من الاضطرار الذي دفع إليها والتآمر الذي واجهها لم تنتقم من أحد ولم تكن حركة ظلم، بل كانت تستهدف رفع الظلم فإنها سرعان ما نشرت العدل والرحمة وأسلمت أهل البلاد زمام امورها بعد أن أزالت عنهم نفوذ الظالمين.

وحين تقرأ حركات الجرمان في تدمير المدن الأوربية وانتهاكها وفتكها بالشعوب، أو حركات بعض الملوك أمثال شارلمان وغيره حيث كان يفرض الدين فرضاً ويسابق الألوف

إلى القتل إذا رفضوا، هذه الصور تكشف عن سماحة الإسلام الذي لم يدع إنساناً واحداً إلى الإسلام إلا إذا رأى ذلك مما يقتنع به أو يرضاه.

ولذلك كانت حركة إنتشار الإسلام بعد الفتح بطيئة ولكنها راسخة فقد مضى أكثر من مائة عام وبعض أصحاب البلاد لا يقبلون الدين الجديد ومع ذلك فلم ينقصهم هذا شيئاً من حقهم ولم يفرض عليهم أحد أن يقولوا لا إله إلا الله.

ومنذ أن تمت كلمة الله ووجدت معتنقيها تشكل المجتمع الإسلامي خصباً مؤمناً مقتحماً للحياة، كاشفاً عن سنن الحياة بعد ان أمده القرآن بسنن الكون فاحتوى العلوم القديمة وورثها وأخذ منها ورفض وصاغ الصالح منها داخل بوتقة التوحيد وبمفهوم العلم الاسلامي الخالص للإنسانية كلها المدافع عن الأخوة الانسانية القائم على الرحمة فلم يلبث أن أنشأ المنهج العلمي التجريبي الذي وجد أصوله الأصيلة في القرآن، بعد أن كانت البشرية ممثلة في آخر حلقات تقدمها لا تعرف إلا علم المنطق اليوناني القائم على الحس والتأمل والنظر العقلي، فجاء الإسلام متجاوزاً ذلك إلى التجربة فصحح أخطاء بطليموس وأوهام أرسطو.

وهكذا رافق الفتح الإسلامي بالعقيدة والتوحيد وتحرير عقل الإنسان وقلبه، تحرير الإنسان نفسه من أصر عبودية الاباطرة والفراعنة والقياصرة، إنتقالاً إلى بناء منهج العلم

التجريبي وصولاً إلى الكشف عن خصائص الأشياء واستخراج كنوز الجبال والبحار وإقتحام الأهوال في سبيل تحقيق إرادة الله بعمران الأرض وتحقيق رسالة الإنسان فيها مستخلفاً بالحق، مقيماً مجتمع العدل والرحمة والأخاء البشري.

ولقد كان ظهور الإسلام وفتوحه بحق هي نهاية العصر القديم وبداية العصر الحديث: عصر رشد الإنسانية الذي جاء متسقاً مع رسالة الإسلام العالمية الخاتمة التي صهرت البشرية من جديد في اطار النظام الرباني بعد أن عجزت مفاهيم البشرية وفلسفاتها واهواءها أن تحقق للإنسان القدرة على الخروج من الظلمات إلى النور، وكان الإسلام إمتداداً لدين الله وإسلام الواحد الحق على مدى الأجيال والأمم والعصور دعوة إلى توحيد الله وإسلام الوجه له وامتثال منهجه في بناء الفرد وإقامة المجتمع على النحو الذي يحقق شريعة الله في الأرض.

وحين يقارن الفتح الإسلامي بالفتوح القديمة من الإسكندر إلى تيمورلنك إلى نابليون نجد الفارق واضحاً وعميقاً، فهو نسيج وحده في تاريخ البشر فقد كان بحق نقلا للأمم إلى الإسلام ولم يكن نقلا للإسلام إلى الأمم.

ليس بغيته أرض يضمها الفاتح إلى امبراطوريته ولا تطلع قيصر الى ما لا تغيب عنه الشمس ولا إستكباراً في الأرض ولا امتلاكاً لموارد الطاقة ولا إستعباداً لخلق الله ولا رغبة في غنيمة باردة، ولا ثأراً لهزيمة سابقة.

وانما خرج المسلمون غاية في الإيمان العميق والتواضع العميق باسم الله وعلى عينه وتحت أكناف رحمته يرفعون اسمه في العالمين بالحق، لا يغلون ولا يقتلون مدبراً ولا يحاربون من ألقى عليهم السلام ويجنحون الى السلم ما جنح لهم عدوهم ويقيمون الصلاة في قلب المعارك ويدوي قرآنهم بالليل ويتوضأون ويتطهرون كلما دخل الوقت لا يغدرون ولا يجهزون على جريح ولا يحاربون إمرأة ولا يمسون معبداً ولا يحرقون داراً ويتسابقون إلى الإستشهاد ويشترط أحدهم أن لا يسأله أحد عن إسمه عندما يقتحم النقب ويجدون في أحدهم بضعة عشر طعنة برمح وضربة بسيف، كل ذلك في سبيل الله وليس في مغنم، فهم يضعون أرواحهم في أكفهم ويخرجون عن أموالهم وديارهم وأبنائهم، إيماناً بجزاء أوفى في جنات عدن وهم كلما يخطون خطوة في أرض الله يحملون لقومها القرآن ولأهلها كلمة التوحيد دون أكراه في الدين فمن شاء فليؤمن.

وبذلك كفل الإسلام للناس مجتمعاً ليعيش فيه الناس أمة واحدة بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم في ظل فكرة الأخاء الإنساني والمساواة والتكافل حيث يحمل المجتمع أهله بالعدل والرحمة، بعيداً عن العنصرية والعبودية والتفرقة القائمة على الدم أو على المتاع أو اللون، أخوة متساوون في الحقوق والواجبات يقوم التميز فيهم على إنسان والمسئولية الفردية مقررة وهي أساس الإلزام والجزاء وكل نفس بما كسبت رهينة ولا إكراه في الدين ولا تقليد بغير دليل أو برهان

وبذلك أصبح المسلمـون أمـة وسطـا، شهـداء على النـاس، وأصبحت البشرية بهم وقد تحولت من العصبية القبلية إلى الأخوة الإنسانية وانتقل عامل الوحدة من العنصرية والدم واللون والقبيلة إلى والعقيدة.

(٩)

البطولة الإسلامية

«رأيت قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، أميرهم كواحد منهم، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد».

يزخر تاريخ الإسلام والعرب بأحداث البطولة التي تمتد عبر مراحله المختلفة دون توقف، وهي في صورها القريبة لا تنفصل في مفهومها عن صورها الأولى وكلها تستمد من مفهوم أساسي واضح هو القيام بدور خلاق في سبيل دفع الأمة إلى الإمام نحو الحرية والقوة والمجد. وتتسم البطولة الإسلامية بطابع عملي إيجابي، وحيث يكرم البطل دائماً، يكرم دوره خادماً لمجتمعه ولفكرته ولأمته، يؤمن حق الإيمان بأن عمله سيكون موضع تقدير الأجيال، ومن هنا فهو لا يتطلع إلى الجزاء المادي ولا المغنم ولا الشهرة.

وقد عرف تاريخ الإسلام أبطالاً قاموا بأدوار على قدر

عظيم من الأهمية دون أن يكشفوا عن شخصياتهم أو يبوحوا بأسمائهم.

وسجل التاريخ هذه المواقف الحاسمة تحت أسماء مجهولة ومن هؤلاء «صاحب النقب» هذا البطل الذي استطاع أن يفتح ثغرة في سور دمشق وقد حاصرها المسلمون طويلا. وحاولوا في مرات متعددة أن يثلموا الجدار دون أن يتمكن واحد من أبطالهم إتمام هذا العمل، فإنه ما يكاد ينطلق أحدهم حتى تتعقبه السهام والنبال فيرتد مرة أخرى دون أن يصل إلى السور، إلا هذا البطل الذي لم يعرف التاريخ إسمه ولم يكشف هو عن شخصيته، فقد اندفع فجأة - بعد أيام طويلة كان القائد يحرض خلالها المسلمين على الاندفاع نحو السور - اندفع على رأس فرسه وسهام العدو تنوشه من كل مكان دون أن يتوقف او يرتد، إلى أن بلغ الجدار فأحدث فيه النقب واخترقه إلى داخل السور وكبر، فكبر المسلمون وعبروا إليه، فلما انتهت الموقعة، ظن قائد الجيش محمد بن مسلمة أن «صاحب النقب» سوف يتقدم إليه، ولكن دون جدوى وبينما هو جالس في خيمته، تقدم منه رجل ضامر نحيل، فقال له: أيها القائد، هل تريد أن تعرف صاحب النقب، قال: نعم، قال: أنا أدلك عليه إذا أعطيتني العهد أن لا تسألني عن اسمي، فقال القائد محمد بن مسلمة لك علي عهد الله أن لا أسألك عن اسمك، قال: أنا هو...

وانطلق خارجاً من خيمة القائد.

ومعنى هذا أن مفهوم البطولة في الإسلام لم يكن الاعلان والشهرة، والتطلع إلى الحظ العاجل والأجر السريع ولكنه كان إيماناً صادقاً في أعماق النفس بأن الله وحده هو الذي يجزي على العمل.

ويزخر تاريخ الإسلام ببطـولات كثيرة مجهـولـة، قـام أصحابها بالعمل دون أن يكشفوا عن هويتهم، التماساً لـرضى الله وحده، وانصرافاً عن مطمح الظهور والإعلان والشهرة، وكان هذا هو مفهوم «الزهادة» التي تتمثل في إخفاء العمـل وتحريره لوجه الله وإخلاصه للحق وحده.

ويجمع الإسلام في معنى البطولة قطاعات عدة: بطولة المفكر والمصلح وبطولة القائد والمحارب، وبطولة بناة الدول وخدام الحضارة.

والبطل في الإسلام خادم لقضية وهدف ولا يقل عمل المصلح الذي يقوم بتصحيح المفاهيم عن المحارب الذي يرد العـدو. ويتسـاوى مـداد العلماء بـــدم الشهـــداء، وفي مجال «الحرب» تتمثل البطولة، ليس في أعمال القتل وحرق المدن، بل في البراعة في كسب المعارك بأقل تضحيات ممكنة.

والبطولة أساساً: بطولة بناء ونمو وامتداد تتمثل في مجال العمل في إضافة الجديد دائماً، وتتمثل في قدرة العالم على توسيع آفاق الروابط بين الفكر والحياة، والمرونة في تحقيق

التجديد والاجتهاد، وتتمثل في قدرة العاملين على إضافة كشوف جديدة.

وتتمثل البطولة الإسلامية في العمل نفسه لا في الفرد من حيث هو من أسرة معينة، أو بلد معين، فليست بطولة عمر ابن الخطاب أو خالد بن الوليد أو صلاح الدين - مستمدة من ميراثه الفردي أو العائلي، بل مستمدة من مفهومه وعمله، وكان مفهوم البطولة دائماً، دفع الجماعة إلى الأمام وتحريرها من الإستعباد وتخليصها من آثار الغزو، وإتاحة الفرصة أمامها للحركة والتقدم.

ولقد عرف تاريخ الإسلام والعرب عدداً من النكسات ولكنها كانت كلها مقدمات للنصر الساحق والهزيمة الساحقة للعدو، فقد كانت الجماعة دائماً قادرة على مواجهة الخطر مهما بلغ من الشراسة والعنف بالتماسك والتجمع والتضحية.

ولقد رسم القرآن الكريم صورة للبطولة جعلها دائماً في مواجهة المسلمين، لتكون العبرة قريبة إلى نفوسهم، وكل أبطال «القرآن» أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ولا يخافون، بل يقفون دائماً موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرؤوس، فقد كانت رسالتهم دائماً هي رسالة «التقدم البناء والإنسانية، ومن هنا عجزت دائماً قوى العدوان عن أن تقتلعهم أو تنتصر عليه».

كانت المقاومة عندهم إيماناً في أعماق النفس، وسلاحاً في

اليد، يعملون بها معاً في اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة.

لقد كان البطل دوماً في مفهوم الإسلام «استجابة» لحاجة الأمة والمجتمع تنبعث في وقت الأزمة، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل في موجة جديدة من موجات التقدم.

ولقد كان الرسول ﷺ هو «النموذج الإسلامي الأعلى للبطل» وكانت صورته دائماً وتجربته وعمله موضع القدوة والتمثل طوال فترات التاريخ الإسلامي ومراحله، وما تزال حتى اليوم موضع القدوة من كل بطل وقائد.

فهو الذي إذا اشتد اليأس اتقى الناس به فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، وهو الذي وجده الناس عائداً من مصدر الصوت على فرس عري عندما خرجوا يتلمسون الخبر، وهو الذي وقف في حنين كالطود بعد أن تفرق أنصاره على أثر هجمة مفاجئة من العدو، ينادي الناس: «إليّ إليّ...» وهو الذي كان يفرق دائماً بين موقفه في الغار ولا قوة معه، ويلتمس نصر الله؛ وموقفه في (بدر) ومعه القوة وجلا من أن يكله الله إلى القوة ويلتمس الله مجرداً. وهو البطل الذي لم تذله الأحداث والقائد الذي لم يهزم قط. وقد علّم خلال سنوات مكة الثلاثة عشرة جيلاً من القادة المغاوير ورباه على البطولة والتضحية والإيمان، فكتبوا صفحات بارعة من المجد «ثم ظل ذلك الرعيل موضع إعجاب الأجيال المتصلة المتوالية».

ومن ثم اتصلت في تاريخ الإسلام روح البطولة والتضحية والموت من أجل الحياة، وكانت مقاومة الظلم، هي أبرز صفحات الكفاح في مواجهة كل باغ وظالم ومعتد على أرض الإسلام والعرب، ولقد استمد المجاهدون والأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطولة، ولعل السر في تقدير الفرنجة لصلاح الدين قربة من مفهوم النبي وأسلوبه. وقد تمثلت البطولة العربية الإسلامية في الشجاعة المروءة والأريحية والكرامة والأباء مع قوة الإرادة ورجاحة الرأي، في ميادين الحرب والعلم والحضارة على السواء.

فقد جمعوا بين بطولة الحرب وبطولة الفكر، فقد كان العلماء كلهم قادة معارك يحملون السلاح في مواقف الجهاد: ابن تيمية والعز بن عبدالسلام وغيرهما تركوا زواياهم واندفعوا يحملون السيوف ويقاتلون في معارك مقاومة المغول الصليبيين ويحرضون المجاهدين ويملئون قلوبهم شجاعة واندفاعا.

ومن قبلهم الحسن البصري شارك في مواقع الغزو؛ كما شارك القاضي أسد بن الفرات. وبطولة الإسلام تقوم أساسا على إنكار الذات ووفق قيم الأخلاق والأريحية «ولا تجهز على جريح ولا تقتل صبيا أو عجوزا أو امرأة. أو تتعرض لعابد في صومعته».

ولقد كانت بطولة العلماء في الدعوة إلى الإستمساك بالقيم،

واذاعتهـا في الأمـة في فترات المحـن هـي أعظــم أسلحــة النصر ،فإذا استطاع المغول أو الصليبيون أن يهدموا بيتا أو يملكوا شبرا فإنهم لا يستطيعون أن يملكوا النفوس الحرة ولا أن يهزموا القوة المدخرة في أعماقها ، ومن هنا كانت بطولة الجماهير تدفع في طريقها كل ظالم وتحطم كل عدوان ، كانت قادرة دائما على رد العدو وسحق الغزو .

وقد كانت بطولة العلماء دائما في أن يبثوا في نفوس الأمم أن تكون دائماً متأهبـة لخطـر العـدو الذي يتحين الفـرصـة ويترقب لحظة الغفلة ، وبطولة بناة الدولة دائماً تتمثل في بناء الجيوش وتأهيلها لتكون على أهبة العمل ، لا للعدوان ولكن اتقاء للعدوان «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» ومن ذلك قول الرسول «ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي ، من رمى سهما في سبيل الله فهو له عدل محرر» وقول عمر : «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل» .. ولقد كانت المعركة مع العدو ، هي معركة الأمة كلها ، يشارك فيها الرجل والمرأة والشباب ، وفيها تخرج الزوجة بغير إذن زوجها والخادم بغير إذن سيده ..

ومن خلال هذه القيم التي ترسمها البطولة الإسلامية تجد أمتنا دائماً القوة في العمل ، ومن هنا كانت محاولة الغزاة من خصومنا تدمير هذه المقومات أو صرفنا عنها .

لقد حول الإسلام مفهوم الفروسية والفتوة العربيـة مـن المجد الفردي والقبلي إلى مجد الأمة والدفاع عن مبدأ رسالة. ويرسم تاريخ الإسلام للبطولة مخططاً واضحا قوامه « الموت من أجل الحياة ». فهذا عمر بن الخطاب يرسل إلى أبي عبيدة ابن الجراح يستقدمه، وقد خشى عليه وباء الطاعون، فيرفض أبو عبيدة قائلاً: دعني يا أمير المؤمنين بين جندي، ويخشى عمر أن يفتن الناس ببطولة خالد بن الوليد والمثنى الخارقة فيعزلها في أوج نصرهما عن مكان القيادة في الجيش ويقول: خشيت أن يوكل الناس إليهما وأردت أن يـعلموا أن الله هو الصانع ». فلما علم بعض الناس هذا الخلاف أوعزوا إلى خالد بالمشادة، فإذا به يقول: « أما وعمر حي فلا، إننا نسمع ونطيع لقيادتنا ».

ويرى أبو محجن الثقفي ميمنة جيش المسلمين في معركة « القادسية » تنكسر وهو معتقل في حبسه فيطلب إلى زوج سعد بن أبي وقاص أن تطلقه ويعاهدها على أن يعود إذا لم يستشهد، وينظر « سعد » محاربا يقاتل فيزلزل كـالصـواعـق ويدهش، ثم يعلم بعد المعركة أنه « أبو محجن » الذي اعتقله لأنه شرب خمرا، فيرسل في طلبه ويقول: والله لن أضربك الحد أبداً مهما شربت الخمر، فيقول أبو محجن: وأنا والله لن أشربها أبدا، فقد كنت أشربها أنفة حتى لا تقول العرب أني أخاف الحد؛ وأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا خاف الله:

ولقد حفل تاريخنا بهذه الصورة: بطولة مع خلق، انكار

للذات مع طلب الموت؛ جمع بين بطولة الفكر، على نحو صوره الجندي المجهول في رده على سؤال المقوقس:

«رأيت قوما الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، أميرهم كواحد منهم ما يعرف كبيرهم من صغيرهم، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد».

(١٠)

البطولة في صورة محارب

خالد بن الوليد

« ما من ليلة يهدى إلي فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام، أحب إليَّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصابح العدو. فعليكم بالجهاد. لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم هأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء ».

تعطي حياة خالد بن الوليد العريضة القصيرة: صورة ذلك التحول النفسي والفكري والروحي الذي أحدثه الإسلام في النفس العربية، بل في الإنسانية جميعاً؛ فقد كان خالد فارساً ومحارباً على مفهوم العرب قبل الإسلام يطلب المجد والتبريز وإعجاب به في ظل عصبية وقبلية وتفاخر بالأجداد والأموال واستعلاء واستطاله:

فلما جاء الإسلام حول مجال البطولة وعمقه، ووسع مفهومه وجعله إنسانياً في سبيل الله، ليس من أجل المطمع

الفردي، أو القبلي، ولكن من أجل إذاعة فكرة، وانتصار دعوة، قوامها تحرير الإنسان من عبادة الإنسان حيث لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على عجمي إلا بالعمل.

ولقد كان خالد من أشد قريش عصبية قبل الإسلام في ظل بيت واسع الثراء، وأسرة ضخمة النفوذ، نشأ خالد في ظل هذه النفوذ والمعالي وتربى، واستعلى بهذا وآمن، فلما بزغ فجر الإسلام في مكة كان في أهله من أشد المقاومين له والخصوم، حتى لقد كان بيته يوصف بأنه أحد بيتين خليقين بالنبوة: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ .

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة بقي مع قومه غاليا يدير الخطط ويأتمر في سبيل القضاء على هذه الدعوة الناهضة.

وقد دفعتهم هزيمة «بدر» إلى التآمر والمقاومة، وزادتهم عنفاً على سحق دعوة التوحيد فقد قتل لخالد فيها عمه وابن عمه وجرح أبوه، ومن هنا كانت مناورة خالد في معركة أحد: هذه المناورة الحربية البارعة حين انتهز فرصة ضعف في المسلمين وهم في أوج النصر، فاستدار بفرسه وفرسانه وسيطر على المعركة وصاح صيحة الظفر، فإذا قريش تنقض على المسلمين وتنال من الرسول ﷺ وأصحابه، وتلك كانت قمة خصومة خالد للإسلام وقمة براعته الحربية قبل أن يسلم، ثم مرت سنوات ست منذ هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة علا فيها شأن الإسلام واتسع وانتظمت الجماعة الإسلامية في

المدينة واستقرت، ومضت غزوات النبي حتى خرج النبي والمسلمون إلى مكة في جيش لجب، مقدماً الهدى أمام موكبه، علامة السلم، وطلباً للحج فإذا قريش تهتز للحدث، وتسابق الرسول، وتبعث من يفاوضه ويوقع معه عقد الحديبية على أن يرجع عامه هذا ويعود عام قابل.

وإذا المسلمون يهزون قلوب أهل مكة بهذا الحدث الضخم، الذي فعل في نفوس الشباب من فرسان مكة فعل السحر مما دفعهم إلى إعادة النظر في أمرهم وأمر هذه الدعوة، مفكرين في هذا الطريق الذي انفتح أمامهم واستهوى طموحهم، وكانت الأعوام المتوالية تعطى هذه النفوس الشابة إحساساً جديداً باستنقاص عبادة الأوثان وضآلة دعوى الجاهلية والتطلع إلى دعوة التوحيد ولواء محمد وكلمة الإسلام: تلك الدعوة الجامعة التي لم يكن يحل دون نفاذها إلى القلوب إلا عصبية القبلية وخصومة الصراع ودم مطلول بين المسلمين وقريش.

فاذا بعمرة القضاء تعطي نفس خالد فهما جديداً وهو الفارس المحارب، فاذا أضيف إلى هذا أن السادة الكبار كانوا قد زالوا في بدر وأحد، ولم يعد نفوذ السلطان القديم من وثنية وعصبية مسيطراً على الشباب الجديد، هناك أحس خالد أن الطريق مفتوح أمامه إلى الإسلام.

وزاد الأمر عمقاً في نفس خالد أن النبي سأل عنه في

عمرة القضاء أخاه وقال له الكلمة التي هزت نفس الفارس المكابر:

« ما مثل خالد من جهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجهده مع المسلمين على المشركين، لكان خيراً له ولقدمناه على غيره».

وكان قد فكر وأوشك أن يتخذ موقفا، حين طلع به الطريق على عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة موشكين أن يقصدا مكة، فقال لعمرو: والله لقد استقام الميسم - أي وضح الآن - إن الرجل لنبي، أذهب والله أسأل فحتى متى. فقال خالد: فلما طلعت على رسول الله، سلمت عليه بالنبوة، فرد عليَّ السلام بوجه طلق، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، فقال الرسول ﷺ: قد كنت أرى لك عقلا، رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير، قلت لتغفر لي كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله - أي أعف عما مضى - قال النبي ﷺ: إن الإسلام يجب ما كان قبله، فوالله ما كان الرسول حين أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه.

ومن عجب أن يقبل خالد وهو البطل الفارس القائد حين أسلم أن يبدأ من أول الطريق، جندياً في صفوف المسلمين دون ميزة خاصة، أو إمتياز معين، وهذا يصور ذلك التحول الذي صنعه الإسلام في نفس خالد، ذلك الذي كان فارساً في قريش، يزدهي بالنصر، ويستعلي بالقيادة والبطولة وقد

صنعه الإسلام شيئاً آخر، فطعم هذه الفروسية بالمعاني العليا والمفاهيم الإنسانية القائمة على الصراحة والوضوح والحق والرحمة. فليس الأمر بعد عنده مطمع دنيا، أو أداة غدر أو ظلماً وأستعلاء، وإنما هناك، ذلك المعنى الكبير، إذاعته كلمة الله، ورسالة الحق وتخليص البشرية من عبودية الإنسان للإنسان، ومن ثم أصبحت الحرب وسيلة مغايرة لا تقصد لكسب مادي أو مطمع شخصي ولا تراد إلا دفاعاً عن الحق، حين يتقدم الظلم ليسد الطريق أمام كلمة الله وهي بعد شيء جديد، ذات مفهوم مختلف كل الإختلاف، لا غدر ولا تمثيل ولامثلة للشيوخ والأطفال؛ ولا أخذ على غرة، فإذا أظهر قوم الإسلام قبل منهم، وإذا عقدوا عهداً أوفى به المسلمون وإذا خاصم المسلمون لم يغدروا ومن هنا انفتح أمام خالد طريق واسع عريض للفروسية والبطولة والحرب، هو أساساً في سبيل الله لا في سبيل المطامع، وجرى بفرسه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، واستطاع بعبقريته الحربية الذاتية أن يبرز ويأخذ مكان الصدارة في زمن قليل فإذا به على القيادة ـ اشترك مع النبي في كل غزواته، منذ مؤته وقضى إلى جانب الرسول أربع سنوات وشهد أحد عشر مشهداً قاتل في ثلاثة منها تحت لواء النبي وفي ثلاثة قاتل قائداً مستقلاً.

أسلم في السنة الثامنة، وقال عنه النبي ﷺ: نعم عبدالله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سلطه الله على الكفار والمنافقين، وشهد له النبي ﷺ بالعقل الراجح وكان آية

الآيات في بطولته يصدر من معنى يسير ولكنه عميق: « إيمان بنصر الله وثقة به تفوق الحدود ».

وكان يصور هذا المعنى حين يقول لخصومه:

« لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم، أو لأنزلكم الله إلينا ».

فلما اختار الله النبي ﷺ الرفيق الأعلى وارتدت العرب كلها إلا قريشاً وثقيفاً، كان دور خالد أكبر دور فقد أبلى بلاءً عظيماً حتى قيل لأبي بكر: في سيف خالد رهقا، فان يكن هذا حقا، حق عليك أن تقيده،

وقال أبو بكر كلمته الخالدة: ما كان لي أشيم سيفاً من سيوف الله.

ومن الردة إلى الفتح: إنطلق خالد في أرض العراق وأدهش بانتصاراته الكل حتى اهتز الخليفة الأول لأمره، فقال عبارته الرائعة « عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ».

ولما عجز القادة أن يتقدموا في الشام أزاء جيوش الروم، قال أبو بكر والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ».

ودفعه إلى الشام فسار مسيرته الخطيرة التي غيرت موازين القوى بين الروم والمسلمين ووصل في أيام قليلة من أقصر طريق ولما بلغ وجهته جمع القادة واتفق معهم على توحيد

الجيوش، على أن يلي كل منهم القيادة مرة بعد مرة وأسلموا له القيادة ووقف عمر في المدينة دهشاً وهو يقول « أمر خالد نفسه، لقد كان أبو بكر أعلم بالرجال مني».

وخالد في كل معاركه منذ أسلم المحارب الظافر المنتصر حتى وصف بأنه القائد الذي لم يهزم ولم يكن ذلك صدفة أو نبوءة. ولكنه كان قدرة وقوة وثقة بالله لا حد لها، وبراعة في التصرف وحكمة وتنطساً للأخبار يعرف عن عدوه كل أمره، ويقدر موقفه فلا ينام ولا ينيم، ولا يبيت إلا على تعبئة، ولا يخفى عليه شيء من أمر القتال ويستغل كل حدث ولو صغيراً وكانت قاعدته الراسخة:

« وإنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال » كان مثلاً عاليا بين جنوده، إذا بدأت المعركة تقدم وحمى ظهره، بقادة من خيرة جنده، وصفوة المبايعين على الموت، فيندفع إلى قائد الجيش المواجه له، يناوشه ويقتحم عليه موقعة المكين، ويقاتله، حتى يقضي عليه مؤمنا بأنه إذا قضى على قائد الجيش انحلت رابطته وتفرق جنده وكان له بصر عجيب بسيكولوجية النصر، كان يقدم جيوشه ويؤخرها وكان يغير أماكنها، ويدفع بعضها إلى أماكن بعيدة ثم يتقدمها خلال المعركة ليفت في عضد عدوه ويلقي عليه ظل اليأس، وآية النصر عنده إيمانه بتلك الكلمة الخالدة:

« أطلب الموت توهب لك الحياة ».

وأمره في كل معركة أحد أمرين لا ثالث لهما: النصر أو الموت، مؤمناً بأنه إذا استشهد فقد كتب لنفسه مصير الخلود.

وفي سنوات قليلة كان خالد حديث المسلمين، حديث البطولة الخارقة، الأسطورية، حديث المنتصر الذي لا يهزم. وكان ذلك في مفهوم الإسلام خطأ وخطراً، فالإسلام لا يقدس الأفراد ولا يضع الأبطال موضع الخلود وإنما يخلد الأعمال، ويخشى أن تتكون وثنية جديدة من خلال بطولة خارقة ومن هنا كان عمق فهم عمر، وتصرفه السريع الحكيم القاهر.

فلم يلبث أن ولى عمر الخلافة حتى عزل خالد وهو في أوج النصر، وفي قلب المعركة، لولا حكمة أبو عبيدة الذي أخر إذاعة الأمر حتى عرفه خالد نفسه، ثم لم يلبث بعد عامين أن عزله عن العمل الحربي كله.

وكان خالد قد قبل عزله عن القيادة وعاد جندياً تحت قيادة أبي عبيدة مكافحاً صادق الجهاد لم يزعجه الأمر وقال كلمته الخالدة:

«وما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين».

ولما قاسمه ماله قبل ذلك عن رضى، ولما أجاز الأشعث ابن قيس بعشرة آلاف حين مدحه، كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يقدم خالد ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته، حتى يعلمن

من أين أجاز الأشعث، أمن ماله أم من مال المسلمين».

فلما عقله بلال بأمر عمر، قال: بل من مالي، فأطلقه، فلما عزله عن الحزب جلة، لقيه من أسر إليه كلمة السوء، فقال خالد: أما وعمر حي فلا. ولم يلبث طويلا بعد عزله فقد مات بعد ست سنوات في حمص.

وذهب عمر يسأل عن أموال خالد فلم يجد إلا فرسه وسيفه؛ فقال «يرحم الله أبا سليمان! لقد كنا نظن به أموراً ما كانت».

إذاً لم يترك إلا فرسه وسلاحه في سبيل الله، وأنفق كل ما جمع من أموال طائلة في فتوحاته، أنفقها في سبيل الله ومات فقيراً.

واجتمعت نسوة من نساء بني المغيرة في دار يبكين خالداً؛ فقال عمر: ما عليكن أن تبكين أبا سليمان ما عليكن، وقال: إن موته قد أثلم في الإسلام ثلمة لا ترفأ، كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة.

وعندما جاء (عمر) الموت قال. والله لو كان خالد بن الوليد حياً لوليته، فإذا قدمت على ربي فسألني من وليت أمور المسلمين قلت: أي ربي: سمعت عبدك ونبيك يقول «خالد سيف من سيوف الله».

أسلم خالد عام ثمان من الهجرة ومات عام واحد وعشرين.

وخاض إحدى وأربعين معركة في اليمن والحجاز ونجد والعراق وأرض الشام وعزل من القيادة عام ثلاثة عشر وعزل من القتال عام خمسة عشر وقضى وهو في سن الخامسة والخمسين، وكان مثلا عالياً للبطل الإسلامي في صورة محارب.

(١١)

القعقاع في كتيبة الأهوال

«لا يهزم جيش وفيه القعقاع»

أبو بكر الصديق

تتمثل في صفحات التاريخ الإسلامي بطولات ومواقف لا حد لحرارتها وبراعتها. قام بها رجال من المجاهدين، لم يتحدث التاريخ عنهم كثيراً، ولم يفرد لهم من الصفحات ما أفرد للأعلام المعدودين، فما زلنا حين نذكر البطولة الإسلامية نذكر خالد بن الوليد، وأبا عبيدة بن الجراح والمثنى بن حارثة، وعمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقاص بوصفهم قادة الجيوش، ورؤساء المواقف والمعارك والأعلام الذين انتدبهم أبو بكر وعمر في معارك الفتح الإسلامي في أرض فارس والروم، والذين رفعوا رايات الإسلام في العراق والشام ومصر.

بيد أن هناك مواقف باهرة قام بها رجال أبطال لم تبلغ أسماؤهم من الشهرة والذيوع ما بلغت أسماء هؤلاء، وفي مقدمة

هذه الأسماء: القعقاع بن عمرو التميمي، قائد كتيبة الأهوال في فتح المدائن، والرجل الذي حيثما وجد أعطى الموقف صورة القوة أو صورة النصر والرجل الذي كان في عصبة خالد بن الوليد الظافرة التي اخترقت طريق الهلاك بين الشام والعراق، حين دعى خالد على عجل ليلحق بقيادة المسلمين في الشام، فترك موقفه في العراق ومضى في جيش من أهل العراق، وكان القعقاع في مقدمة رجاله. وللقعقاع مواقف عديدة في معارك الإسلام ولكنه يبدو على نحو يثير الإعجاب والتقدير في مواقف ثلاثة، أحدها حين تقدم هو وخالد بن الوليد فاقتحم سور دمشق بعد حصار طويل فصعد وكبر وفتح للناس بوابة المدينة. والثاني حين طلب إليه أن يلحق بالمسلمين في القادسية مدداً لسعد بن أبي وقاص، وقد وجهته براعته الحربية أن يقسم جيشه إلى فصائل، وأن يأمر كل واحدة منها أن لا تتحرك حتى تغيب الأخرى على حد البصر، فكان عمله هذا من أسباب النصر..

أما موقفه الرائع فهو اندفاعه في نهر دجلة على رأس ستمائة من المسلمين أطلق عليهم «كتيبة الأهوال» أو «الكتيبة الخرساء»، لأنهم كانوا يعومون بخيولهم فوق الماء حتى بلغوا الضفة الأخرى في مواجهة الفرس.

والقعقاع فارس عربي وبطل في الجاهلية وقد شهد اليرموك وفتح دمشق وأكثر وقائع الإسلام مع الفرس وسكن الكوفة من بعد وأدرك موقعة صفين فحضرها مع علي، وكان يتقلد

في أوقات الزينة سيف هرقل (ملك الفرس) وهو مما أصابه من الغنائم في حرب فارس، وكان إلى ذلك شاعراً فحلاً وقد أثر عن أبي بكر قوله: «صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل».

وننظر فنرى القعقاع في الشام واحداً من عصبة خالد الظافرة التي استطاعت أن تسيطر على دمشق بعد حصار طويل، فقد ظل خالد ومعه القعقاع مقيمين على الباب الشرقي، في يقظة للأحداث وترقب للأمور، حتى علم خالد يوماً أن «بطريق» دمشق قد ولد له ولد، وأنه فرح به أشد الفرح «فأقام حفلاً ضخماً وأولم الولائم ودعا الجنود والقادة إلى موائد حافلة أكل فيها الجنود والحراس، فغفلوا عن مواقعهم، فلم يلبث خالد أن اصطحب القعقاع ومعهما حبال أعداها كهيئة السلالم مربوط بها تلك الاداة التي يمسك بها في نواتيء الجدران، فلما بلغ الليل مداه، تقدم مع القعقاع وغيره فعبروا الخندق عائمين على قرب الماء. وثبتوا هذه الحبال في الأسوار وتسلقوا سلالمها، حتى إذا ارتقوا الجدار أعادوها من الناحية الأخرى فنزلوا أمام الباب ففتحوه، وكبروا وكبر أخوانهم في أعلى الجدار، واندفع جند المسلمين يعبرون الماء ويتسلقون الحبال، هناك أسرع خالد وأسرع القعقاع فقتلوا الحراس، فتحوا الباب بالسيوف واندفعوا داخل المدينة يكبرون...

ولا يلبث القعقاع حتى يدعى إلى العودة إلى العراق في

جنده الذين قدم بهم خالد بعد فتح دمشق، ويسرع القعقاع ابن عمرو التميمي السير في ألف من الجند تنفيذاً لأمر عمر ابن الخطاب لينصر سعد بن أبي وقاص في معركة « القادسية » الحاسمة الفاصلة مع الفرس. وكان عمر يدرك قدر القعقاع كما كان يدركه أبو بكر من قبل، وهو الذي أمد به خالد عشية مسيرته إلى العراق، وقال: « لا ينهزم جيش فيه مثل القعقاع ».

ولما اقترب القعقاع من القادسية وكانت قد مرت بيومها الأول - يوم « أرماث » وأحس بحاجة المسلمين إلى قواته. أراد أن يرفع القوة المعنوية في المسلمين على نحو يعجل بالنصر ويكتب لهم الظفر فقسم رجاله الألف إلى عشر فرق، وعهد إليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التي سبقتها قد بلغت غاية ما يرى البصر، وسار هو على رأس الفرقة الأولى، فبلغ القادسية قبل بدء اليوم الثاني للمعركة ثم تقدم الصفوف لبدأ القتال وقال للناس:

« أصنعوا كما أصنع ».

فلما كان بين الصفين « نادى » من يبارزني « فخرج إليه أحد أبطال الفرس، وانقض القعقاع على الرجل فقتله، ومضى يفعل ذلك بقادة الفرس، فما تزال القوات العشر التي قسمها ترد فئة بعد فئة، وكلما دخلت فئة كبر لها المسلمون وهللوا. وأحس العدو أن مدداً جديداً قد وصل إلى المسلمين، فأثر

ذلك فيهم وفت في عضدهم، وأعلى من نفسية المسلمين وروحهم المعنوية.

ومضى القعقاع في معارك الفتح الإسلامي بطلاً واضح الأثر، حتى بلغ المسلمون (المدائن) عاصمة كسرى وبينهم وبينها نهر دجلة، وكانوا قد بلغوا النهر في جوف الليل، ووقفوا عند شاطئه، حيث تحققت نبوءة النبي حين قال للمسلمين وهو يحفر الخندق حول المدينة، وهو يضرب الصخرة بفأسه: إنهم سيفتحون إيوان كسرى.

ووقف ضرار بن الخطاب ونادى بأعلى صوته: الله أكبر، هذا أبيض كسرى، هذا ما وعد الله ورسوله.

فلما أصبح الصباح وقف المسلمون وعلى رأسهم سعد بن أبي وقاص يفكرون في عبور دجلة، ولم تكن هناك وسيلة لنقلهم إلى الضفة الأخرى، حيث العدو يحاصر الشاطىء ويفرض عليه قواته ونفوذه.

ووقف سعد خطيباً وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه منه: وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، وقد رأيت من الرأي أن تبدءوا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فلم يتم كلمته حتى قالوا: عزم الله لنا ولك على الرشد

فافعل. وقال سعد: من يحمي لنا المخاضة من الناحية المقابلة، وانتدب عاصم بن عمرو، ومعه ستمائة من أهل النجدة، فساروا حتى بلغوا شاطىء دجلة، فانتدب ستين فارساً تقدمهم هو إلى حافة النهر وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ ودفع فرسه فاقتحم النهر واقتحم زملاؤه معه.

ورأى القعقاع بن عمرو الكتيبة وهي تتقدم في سبحها ونظر إلى الجانب الآخر من النهر فرأى الفرس وهم يتهيئون للقائها فأمر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه فلما دنا عاصم وأصحابه من الشاطىء وقد تأهب الفرس لقتالهم وهم على فرسانهم في النهر، قال: الرماح، الرماح، أشرعوها وتوخوا العيون.

ولم تلبث خيل الفرس أن هربت حين قذفوها بالرماح ولم يملك فرسانها لها ثباتاً ولم يصب أحد من كتيبة الأهوال بسوء. وخرج عاصم إلى الشاطىء وأدركه القعقاع على رأس كتيبته الخرساء ولم يبق على الشاطىء من الفرس أحد.

وقد تلقى المؤرخون أمر هذا العبور بدهش بالغ، وعجب شديد يقول ابن كثير: «كان يوماً عظيماً وأمراً هائلاً، وخطباً جليلاً وحادثاً باهراً، ومعجزة لرسول الله ﷺ حققها الله لأصحابه لم ير مثلها في تلك البلاد ولا في بقعة من البقع.

ويقول أبان بن صالح: لقد انتهى المسلمون إلى دجلة وهي

تطفح بماء لم ير مثله قط، وإذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر وحرقوا الجسر، فاغتم سعد والمسلمون إذ لم يجدوا إلى العبور سبيلا، فانتدب رجلا من المسلمين فسبح فرسه وعبر، فسبح المسلمون ثم أمروا أصحاب السفن فحملوا الأثقال: فقالت الفرس: «والله ما تقاتلون إلا جناً - فانهزموا».

ومثله كثيرون.

وقد وصف المؤرخون كيف اقتحم سعد بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف منهم أحد، حتى لم يكن يرى وجه الماء من الفرسان وقد أخذوا يتحدثون على وجه الماء، لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ونصره وتأييده وأن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا اليم فسددهم الله وسلمهم فلم يفقد من المسلمين رجل واحد ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم، وكان الذي ساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي، فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه وليظهر الله دينه وليهزمن الله عدوه.

وقال له سلمان: ذلل لهم والله البحر كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً، فخرجوا منه كما قال سلمان لم يغرق أحد ولم يفقدوا شيئاً وخرج جيش المسلمين من الماء والخيول تنفض أعرافها صاهلة، وبلغوا القصر: قصر كسرى.

وهكذا كان القعقاع بن عمرو في هذا الموقف شأنه في مواقفه السابقة، بطلا منصوراً، اندفع في رجاله الستمائة إلى الماء على فرسانهم، فكتب له ولأصحابه النصر، كذلك كان يوم قسم جيشه إلى فرق استقدمها على التوالي أمام العدو فهزه وأيأسه وأدخل الثقة على المسلمين فانتصروا.

إن مثل القعقاع بن عمرو كثيرون، منهم صاحب النقب الذي رفض أن يعلن إسمه، ومنهم أبو مجن الثقفي وشرحبيل ابن حسنة والنعمان بن مقرن.

(١٢)

عمر في بيت المقدس

كانت أطول رحلة قطعها خليفة من الخلفاء الراشدين، من المدينة إلى بيت المقدس في أسابيع ثلاثة، سار عمر على بعير له جعل عليه غرارتين في إحداهما سويق وفي الأخرى تمر، وبين يديه قربة مملوءة ماء، وخلفه جفنة للزاد ومعه جماعة من الصحابة كان يقرب لهم جفنته كل صباح فيأكلون معه، ذلك كان أمره حتى بلغ الجابية، وكان يمر بالمسلمين فيعلمهم وينهاهم عما يخالف دينهم ويسأل عن أمورهم فلما أشرف على الشام رأى خيلاً مقبلة بعث بها أبو عبيدة لتجيئه بنبأ مقدم عمر وأراد عمر دخول بيت المقدس وعليه مرقعة من صوف قال له أصحابه لو ركبت بدل بعيرك جواداً ولبست ثياباً بيضاء ففعل وطرح على عاتقه منديلاً من كتان دفعه إليه أبو عبيدة وقدم إليه «برذون» يركبه فلما رآه يهملج نزل عنه وقال لأصحابه أقيلوا عثرتي، أقال الله عثرتكم يوم القيامة، فقد كاد أميركم يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر. كان

ذلك في العام الخامس عشر بعد أن اتسع الفتح الإسلامي في الشام والعراق وفارس، وقد بلغ المسلمون أطراف دمشق وانتصروا نصرهم المؤذر في «اليرموك» واستولوا على طبرية وبيسان ووقفوا على أبواب فلسطين وبلغ المسلمون حمصاً وحماة وحلباً فأنطاكية، فشمال الشام والنصر في ركابهم هنالك طلب أهل «ايلياء» ـ بيت المقدس ـ أن يصالحهم المسلمون على صلح أهل مدن الشام وأن يتولى ذلك العقد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب بنفسه، هنالك كتب أبو عبيدة إلى الخليفة بذلك فلما بلغ الخطاب عمر، قرأه على المسلمين واستشارهم فيه: وأيد كثير من المسلمين الرأي بسفر عمر، وقال علي بن أبي طالب للخليفة: «إليهم فقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام إذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح ولست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم» وآثر عمر رأي علي وأخذ به واستخلفه على المدينة.

وسار عمر من المدينة إلى الجابية. وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بها ليوم سماه لهم، فاستقبله هنالك: يزيد ابن أبي سفيان، أبو عبيدة، خالد بن الوليد في عرض عسكري يأخذ بالنظر.

ويقول أبو الغالية الدمشقي: فقدم عمر بن الخطاب الجابية عن طريق ايلياء على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا

ركاب، وطاؤه كساء صوف، هو وِطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته شملة محشوة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه فقال: ادعوا لي رأس القوم فدعوا له الجلوس فقال: اغسلوا قميصي وخيطوه واعيروني ثوباً أو قميصاً فأتى بقميص كتان، فقال ما هذا؟ قالوا كتان، فنزع قميصه فغسل ورقع وأتى به فنزع قميصهم ولبس قميصه.

فقال له الجلوس: أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً لكان هذا أعظم في أعين القوم... فقال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً.

فأتى ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه بها، فقال احبسوا احبسوا، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا.

ويقول طارق بن شهاب، لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع خفيه، فأمسكهما بيده ودفع الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة. قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا فصكه عمر في صدره وقال: أو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة!، أنكم كنتم أذل النفس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبون العز بغيره يذلكم الله.

وفيما عمر بالجابية، أقبلت الفرسان في أيديهم السلاح وابتسم عمر لمرآها حين فزع الناس وقال: «مستأمنة مستأمنة».. لا تراعوا وأمنوهم ذلك أنهم كانوا رسل صفرينوس أسقف بيت المقدس جاءوا ليتموا الصلح مع الخليفة العادل الذي اختاروه شخصيا لعقد الصلح، وقد كان عمر سمحاً معهم فقد طلبوا أن يصالحهم على صلح دمشق، ولكن عمر كتب لهم صلحاً أكثر سماحة وسخاء، وكتب لهم كتاب صلح ما زال في نظر المؤرخين والباحثين من أعظم الوثائق.

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبدالله أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم: سقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم لا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض، فمن شاء منهم فعدو، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية

ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله، وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

إمضاء.

«عمر بن الخطاب»

شهد بذلك: خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، عبدالرحمن بن عوف، معاوية بن أبي سفيان.

فلما أتم عمر الكتاب حتى حمله رسل صفرينوس إلى بيت المقدس وهنالك بلغت غبطة الأسقف وأهل إيلياء مداها، فقد أقرهم المسلمون على مناصبهم وأمنوهم على أموالهم وأنفسهم وكنائسهم وأباح لهم العهد حرية الإقامة والترحال آمنين ولم يفرض عليهم شيئاً غير «الجزية» التي هي ضريبة الدفاع التي كان يدفعها غير المسلمين في مقابل عدم اشتراكهم في الجيش.

ولم يلبث أهل اللد أن حصلوا من عمر على عهد فيه ما في عهد أهل إيلياء من الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم.

هنالك أتم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مهمته وصرف أبا عبيدة وخالداً ثم اتجه إلى بيت المقدس مستصحباً عمرو بن

العاص وشرحبيل بن حسنة في أرجح الروايات وكان بعير عمر لا يزال يعالج فلما عرض عليه البرذون أخره واستقر حتى لجم بعيره فركبه ودخل بيت المقدس حيث تلقاه البطريق صفرينوس وكبراء أهل المدينة فاجتمع بهم وتحدث إليهم فأحبوا إخلاصه وسماحته. تحدث إليهم حديث المحبة والوفاء وازداد عجب الناس بأمير المسلمين ورأوا فيه صورة بعيدة كل البعد عن صورة قيصر وما كان لولاته وحكامه من بطش واضطهاد فلما أمسى الوقت وانصرف الناس خلا عمر بنفسه فصلى الله شكرا.

فهذا عمر لأول مرة عند المسجد الأقصى حيث أسرى برسول الله ومنذ تلك الليلة لم يقصد رسول الله إلى بيت المقدس ولم يتح ذلك للخليفة أبو بكر الصديق فإذا كان قد أتيح ذلك لعمر بن الخطاب فقد حق أن يشكر الله فقد فتحت بيت المقدس له أبوابها.

ومن قبل كانت هناك نبوءة رددها أرطبون حين علم أن عمرو بن العاص قد أرسل إلى عمر بن الخطاب يسأله رأيه: ويقول: أني أعالج حربا كؤودا صدوما، وبلاداً أدخرت لك فرأيك: قال أرطبون إن عمر بن الخطاب هو صاحب فتح هذه البلاد فأقبل أصحابه يسألونه من أين علم أن ابن العاص ليس بصاحب إيلياء، فذكر لهم أن صاحبها رجل اسمه عمر «ثلاثة احرف»، وأن ذلك في التوراة، وأن فيها من صفة عمر ما لا يدع شكا في أن بيت المقدس ستؤول إلى المسلمين وان

أرطبون ما لبث حين عرف ذلك أن انسحب بقواته إلى مصر تاركا للأسقف صفرينوس معالجة الموقف مع المسلمين.

وفي صباح اليوم التالي لوصول عمر إلى بيت المقدس أقبل « صفرينوس » فقاما معا بجولة في اتجاه المدينة، يريان آثارها ومواضع الحج فيها: كنيسة القيامة ومحراث داود والصخرة التي صعد منها رسول الله في المعراج وإطلال معابد وثنية شادها حكام فلسطين. ومضى صفرينوس يقص طوال الرحلة على عمر قصة هذه المعابد وبينما الرجلان في كنيسة القيامة أدرك عمر وقت الصلاة فطلب البطريق إليه أن يصلي بها فهي مساجد الله، ولكن عمر الذكي اليقظ اعتذر عن الصلاة وقال أنه إن فعل فإنما يكون قد خالف عقد الأمان وأن المسلمين سوف يفعلون مثله، بل ربما طالبوا بمكان صلاته، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم أو خالفوا الشرط المعقود كما اعتذر لنفس السبب عن الصلاة في كنيسة قسطنطين المجاورة بعد أن مدوا له عند بابها بسطا يصلي عليه وفي هذه المناسبة أعطى عمر للنصارى عهداً ألا يصلي المسلمون على عتبات الكنائس.

وقد اختار عمر مكاناً قريباً من الصخرة المقدسة حيث شاد المسلمون من بعد: المسجد الأقصى وكان أيام عمر مسجداً ساذجاً كمسجد المدينة الأول.

وهكذا أحكم عمر الرأي في حرية الدين وتمسك بقاعدة:

« لا إكراه في الدين » وعلى هذا النحو مضت أيام عمر في بيت المقدس بين ترحيب صفرنيوس وأهل إيلياء بالخليفة العادل السمح.

وقد خطب عمر المسلمين في بيت المقدس وكان عمر قد استشار في أي مكان يصلي فأشار عليه كعب الأحبار أن يصلي خلف الصخرة وأن تكون القدس كلها بين يديه هنالك قال له عمر « ضاهيت اليهودية، لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وأمر عمر بأن تجعل قبلة المسجد صدره كما جعل رسول الله قبلة مساجد الإسلام صدورها وكان كعب قد أشار أن يجعل المصلي إلى الصخرة قال عمر: «إنا لم نؤمر بالصخرة ولكن أمرنا بالكعبة». ومن ثم صرف عمر القبلة إلى الكعبة.

ولما بلغ عمر الصخرة حدث واحد من الأحداث الغريبة التي عرفت عن عمر في تاريخه، ذلك أن ما أن بلغ عمر الصخرة حتى رأى عليها كناسة كان الروم يلقونها فوقها، فوقف عمر وقال: أيها الناس اصنعوا كما أصنع، وجثا في أصل الصخرة وحت في فرج من فروج قبلته وجعل يحمل ما عليها بنفسه من الكناسة فيلقيه بعيداً عنها وصنع أصحابه مثل صنيعه وما زالوا بالصخرة حتى زال كل ما كان عليها.

هنالك أتم عمر بن الخطاب مهمته وقضى غايته من رحلته، وآن له أن يعود إلى المدينة فلما كان بالجابية أقام أياماً ينظر في

أمور المسلمين ثم ركب فرسه عائداً من نفس الطريق الذي جاء به ومن حوله أصحابه.

وكان المسلمون في المدينة قد علموا ما صنع عمر فخرج علي وخرج المسلمون فاستقبلوه ظاهر المدينة حافلين برحلة أمير المؤمنين لأول مرة من المدينة الى بيت المقدس.

ولعل هذه الرحلة هي التي حرضت عمر على أن يرتب من بعد أمره لينظم رحلة كبرى قدر لها عاماً كاملا يقضي منها شهوراً في مصر وشهوراً في العراق غير أن مشاغل القيادة والفتح واتساع نطاق العالم الإسلامي لم تدع الفرصة لتحقيق مثل هذه الرحلة الفذة.



(١٣)

فتح مصر

الجمعة الثاني من شهر المحرم

عام ٢٠ من الهجرة

في هذا اليوم المبارك ألقى سيدنا أبي عبدالله عمرو بن العاص السهمي العربي خطبة الجمعة الأولى في أرض الكنانة حيث رددت الفسطاط والروضة والجيزة صدى كلمة الله أكبر بعد أن أصبحت مصر قطعة من أرض الإسلام وتحققت بذلك واحدة من كلمات رسول الله ﷺ الخالدة بأن أصبحت مصراً ملاذاً للإسلام ومقراً للقرآن وداراً من دور الله الممتدة في أفاق الأرض وذلك في العام العشرين من الهجرة النبوية وكان ذلك أيضاً علامة على ذلك الإمتداد الذي لم يلبث أن اتسع نطاقه حتى شمال أفريقيا الشمالية كلها ووصل إلى جبل طارق عندما عبر طارق بن زياد، الى قلب أوربا عام ٩٤ هجرية ولقد كشف رسول الله ﷺ هذه الصفحة موحياً إلى أصحابه يقدّر ما تمثله من جلال الأمر وخطر الأثر حين قال:

« ستفتح عليكم بعدي مصر فاتخذوا منها جنداً كثيفاً فإنهم خير أجناد الأرض وهم في رباط إلى يوم القيامة » وقوله عليه الصلاة والسلام: « ... فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً ! ».

ولقد أثبتت الأحداث اليوم وبعد أربعة عشر قرناً أن مصر ما تزال القاعدة الراسخة التي تمكن للرباط الدائم في وجه المغيرين والمعتدين وهي القلعة الحصينة التي تقف على خط المواجهة مع كل أخطار الصليبيين والتتار والإستعمار العربي والصهيونية. وسوف تبقى كذلك بإذن الله.

تلك عبرة يوم الجمعة المبارك الثاني من شهر المحرم عام ٢٠ من الهجرة عندما أقام عمرو بن العاص الصلاة الجامعة لأول مرة في هذه الأرض الطيبة التي عرفت من قبل وأوحيت وعانقت كل دعوات الدين ورسالات الأنبياء وبها جاء موسى وعيسى وإليها جاء جند محمد يكملون رسالة الحق تبارك وتعالى ويحملونها إلى الناس. وعمرو بن العاص هو ذلك الصحابي المختار الذي حمل اللواء.

نقل الحافظ بن حجر في الإصابة عن الزبير بن بكار أن رجلاً قام لعمرو بن العاص فقال:

ـ ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك.

فأجابه: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن توازن حلومهم الجبال فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليه قلدناهم فلما

ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حق بين. فوقع في قلبي الإسلام فعرفت قريش ذلك من إبطائي كنت أسرع فيه من عونهم عليه فبعثوا إليَّ فتى فناظرني في ذلك فقلت:

ـ لقد وقع في نفسي أن الذي يقوله «محمد» عن البعث بعد الموت ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق ولا خير في التمادي في الباطل.

كان هذا في أوائل السنة الثامنة من الهجرة.

وخرج عمرو بعد ذلك إلى النبي ليسلمْ. فلقي في طريقه خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة من بني عبد الدار سدنة الكعبة.

قال عمرو: فقلت لخالد: إلى أين يا أبا سليمان. قال: والله لقد استقام المنسم وأن الرجل لنبي: أذهب والله أسلم فحتى متى:

قال عمرو: وأنا والله ما جئت إلا لأسلم.

فلما دخلوا على رسول الله نظر إليهم وقال لأصحابه:

ـ لقد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها.

قال عمرو: فتقدم خالد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت.

ـ يا رسول الله: إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي.

قال النبي: يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجب ما قبله وأن الهجرة تجب ما قبلها.

قال إبن حجر: فلما أسلم عمرو كان النبي يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته. وقد وكل إليه رسول الله أن يهدم وثن «سواع» الذي ذكره القرآن وكان برهاط لهذيل.

وخوفه سادن سواع وأراد أن يثني من عزمه وحذره عاقبة عمله فقال له عمرو:

- أنت في الباطل بعد.

وتقدم إليه وهدمه ثم قال للسادن: كيف رأيت.

قال السادن: أسلمت لله رب العالمين.

وقد ولاه رسول الله قيادة غزوة ذات السلاسل في السنة الثامنة وجعل تحت قيادته أهل الشرف من المهاجرين والأنصار ثم أمده بمدد على رأسه أبو عبيدة وأبو بكر وعمر وكان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد بعد علي رأس الجيوش الإسلامية التي تدافعت للقضاء على فتنة الردة فوصل إلى سواحل الخليج الفارسي.

وعندما اختاره عمر بن الخطاب لمعارك الشمال قال لعمر:

« إني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئاً أن جاءك من ناحية من النواحي، فكان قائد أحد الجيوش

الأربعة وهو الجيش الذي فتح فلسطين.

وقد صـدق الله وعده فبقيادته استولى المسلمون على فحل وبيسان وأجنادين. ولما تقدم أرطبون الروم قال عمر بن الخطاب عن عمرو بن العاص:

(رمينا أرطبون الروم بأرطبـون العـرب فـانظـروا عـم تنفرج).

وقد صدق الله وعده وانتصر أرطبون العرب.

ويبدو ذكاء عمرو وحكمته في فتحه لمصر فقد تحدث إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين قدم إلى بيت المقدس في أمر فتحها فأذن له بالمسير إليها وقدمه في أربعة آلاف من المسلمين فلما أن وصل الخليفة إلى المدينة خشي أن يندفع عمرو بجند المسلمين في هلكة أو خطر فأرسل إليه يقول:

« إن لم تكن قد دخلت مصر فارجع وإن كنت دخلت فأمعن لوقتك، وقد أدرك الكتاب عمرو بن العاص قريباً من رفح فخشى أن يكون فيه أمر بالعودة فظل يطـاول الرسـول حتى دخل حدود مصر إلى قريب من العريش ثم أمر بفض الخطاب وكان قد تجاوز الشرط الذي شرطه الخليفة فمضى لوقته وعلى بركة الله.

ولما أوعزت عمرو قوة جديدة دعا أمير المؤمنين إليها فزوده بأربع رجال: هم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود

وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقال: أن الرجل منهم بألف.

وصدق عمر بن الخطاب فقد كانوا من الشم الرواسي والعقول الراجحة الذين استطاعوا مع حكمة عمرو ودهائه أن يجدوا الطريق إلى قلوب الناس بالرحمة والعدل والخلق الرفيع.

وقد استضاف عمرو رسل الروم واستبقاهم فترة من الزمن ليروا ضوءاً من أضواء الإسلام وعزم أمته وإيمانهم فلما عادوا قالوا:

« رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة - ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم فما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد يغسلون أطرافهم بأيديهم ويخشعون في صلاتهم ».

ولقد كان ذلك كله مقدمة لصلاة الجمعة العامة في يوم الجمعة الثاني من شهر محرم عام ٢٠ هجرية.

يقول صاحب النجوم الزاهرة أن من فضائل مصر أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربع وعشرين موضعا منها ما هو بصريح اللفظ ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير.

وأشار إلى حديث رسول الله: « ستفتح عليكم بعدي مصر »

وقال إبن كثير رحمه الله في تفسير ما أشار إليه رسول الله: فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً: المراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام: أمه هاجر القبطية وهو الذبيح على الصحيح، وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي ﷺ وأخوال إبراهيم إبن رسول الله ﷺ، ولدته مارية القبطية من سن كورة الصفا وقد وضع عنهم معاوية الجزية إكراماً لإبراهيم إبن رسول الله.

(١٤)

مدرسة التسلح الخلقي

يمر العالم الإسلامي اليوم بمرحلة لا تختلف كثيراً عن المرحلة التي مر بها في مواجهة الحملات الصليبية وغزو الفرنجة في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والمسلمون على أبواب معركة حطين التي استعادوا بها بيت المقدس عام ٥٨٣ هجرية ١١٦٧ ميلادية، هذه المعركة التي كتب فيها النصر للمسلمين بعد كفاح طويل امتد على أيدي أبطال ثلاثة هم: عماد الدين زنكى ممهداً ونور الدين بانيا لمدرسة التسلح الخلقي وصلاح الدين الأيوبي محققاً للنصر بعد أن أتت الأعمال التمهيدية في مجال المجتمع والجيش ثمرتها. والمعروف أن أول حملة صليبية غادرت أوربا إلى الشرق الإسلامي استطاعت أن تصل أمام بيت المقدس في أول يوليو ١٠٩٩ واستطاعت بالإستيلاء على القدس في ١٣ يوليو ١٠٩٩ أن تنفذ أبشع مجزرة بشرية في التاريخ قتل فيها مائة ألف من سكان المدينة، ثم جرى العمل خلال ثمانية أيام على إبادة جميع سكان

القدس وعددهم ستين ألفا لم يستثنوا إمرأة ولا ولداً ولا شيخاً.

وتم على أثر ذلك إقامة الإمارات اللاتينية الأربع التي تكونت منها مملكة بيت المقدس الصليبية وهي: الرها وطرابلس وأنطاكية وبيت المقدس ثم وضعت خطط التوسع الهادفة للوصول إلى بغداد شرقا والقاهرة غرباً.

وقد واجه العرب والمسلمون الأمر منذ اليوم الأول بالمقاومة، فبرزت كتائب الفداء وستنتهي بالهزيمة الساحقة كما أنهت غزوة الصليبيين.

وقد واجه العرب والمسلمون الأمر منذ إحتلال القدس ١٠٩٩ بالمقاومة والجهاد فبرزت كتائب الفداء في المنطقة الجغرافية الممتدة بين مدينتي الموصل وحلب، وقامت المباحثات بين حاكم القاهرة وخليفة بغداد، وجرى تبادل السفراء للبحث عما يجب عمله لمواجهة الموقف، وبدأت الحركة التحررية وحركة المقاومة في العمل واستطاعت أن تحقق نتائج تؤكد بقاء الوجود العربي الإسلامي وقدرته على العمل في أحلك الظروف حتى تقدم (عماد الدين زنكي) أمير الموصل فحمل راية الجهاد واستطاع انتزاع حصن الرها الصليبي عام ١١٤٤ م. وكان ذلك مقدمة العمل نحو تدمير الكيان الصليبي. وبه فتحت ثغرة في جدار المملكة اللاتينية.

ولما استشهد عماد الدين (١١٤٦) بفعل مؤامرة

الصليبيين، كانت أضواء الفجر توشك أن تكشف عن عمل موحد استطاع (نور الدين محمود) أن يقوم به، ويفتح معه بالحق عصراً جديداً في معركة المواجهة قوامه أمرين:

(الأول) إعادة التسلح الخلقي وإنشاء مدرسة جديدة في الثقافة العربية الإسلامية توحد القيم العقلية والروحية وتصبغها بصبغة الجهاد في سبيل الله.

(الثاني) تكوين جبهة قوية متحدة لمواجهة الخطر الصليبي يمكن أن يطلق عليها إسم «الجبهة الإسلامية العربية».

ويختلف (نور الدين محمود) عن أبيه (عماد الدين) في أنه ليس حاكماً مورثاً وليس طامحاً سياسياً على النحو الذي عرفه السلاجقة، ولكنه نموذج وحده، مطبوع بطابع الإسلام والعروبة، يلتمس مفاهيمه في مواجهة الغزو الصليبي العربي بروح مستمدة من المقومات التي انتصر بها رسول الله ﷺ والمسلمون على مدى التاريخ وهي مفاهيم لا تفنى على اختلاف العصور، ولا تتغير مع تباين البيئات، ولن ينتصر المسلمون والعرب بغيرها وقوامها «العقيدة والقوة معا» وقد ذلل الله له ـ وهو الصادق في دعوته وانتمائه أن يحقق في المجالين نتائج ضخمة، فاستطاع إنشاء «مدرسة التسلح الخلقي» وحشد لها العلماء والفقهاء والصوفية المؤمنين بالجهاد في سبيل استخلاص الحق وإقرار العدل ومطاردة الظلم والبغي:

فقد استقر في حلب وسرعان ما استطاع ضم دمشق، ثم

مدَّ يده إلى مصر فأتم تلك الوحدة التي أورثها لقائد نابه سار على نفس الخط، واستطاع أن يستثمر كل الغراس التي مهد له به (نور الدين) للنصر، ذلك هو «صلاح الدين». وكان نور الدين قد أمضى سنواته الخصبة العريضة منذ ١١٤٦ إلى ١١٤٧ حين توفي، في تركيز الخطى ودعم النظم ومواجهة الصليبيين في كل مكان وبناء الحصون والقواعد، حتى استقام له الصف وتأكدت الوحدة.

لقد تحول (نور الدين محمود) من أمير حاكم إلى بطل مجاهد. وكان يستطيع أن يقنع بالملك في حلب آمناً. ولكنه كان مسلماً يتطلع إلى تحرير الأرض من الغزاة، وعدته في ذلك إيمان عميق، وثقة بالله وقدرة على كسب القلوب، ومحبة على قلوب كل المحيطين به من أمراء والعاملين معه من قادة. ولقد وضع (نور الدين) تلك القاعدة التي حققت النصر وأكسبته مزيداً من ثقة الأعداء قبل الموطنة، وهي أنه لم يكن يحارب الصليبيين على أنهم نصارى. بل على أنهم أجانب معتدين على بلاد العرب والمسلمين وكان الصليبيون في بيت المقدس يقولون: إن نور الدين له مع الله سراً، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل.

وقد نجحت خطته في (إعادة التسلح الخلقي) كقاعدة للمقاومة ـ فأنشأ مئات المساجد والمدارس، وجعلها قاعدة القتال حيث يبني أفراد الأمة بالتوحيد الخالص والإيمان

بالجهاد والمقاومة. وبذلك خلق جواً ثقافيا إسلاميا عربيا له مفاهيم تاريخ طويل، وتراث باهر في النصر المؤزر والذود المشرف عن الأرض والعقيدة والاستشهاد في سبيل حماية الزمار وإعلاء كلمة الله.

وكان (نور الدين) فارساً محارباً، وقائداً مقتدراً في رسم الخطط وتنظيم المعارك وإعداد أساليب الحصار وأدوات الغزو. وكان يتقدم المقاتلة ويحسن القتال في مواجهة العدو، ويرمي بالقوس عن براعة، وقد أكسبته محبته للعبة الكرة وولعه بالرياضة مرونة وتفوقاً، وكان إلى ذلك طيعاً لخلق الإسلام رفيقاً كريماً عفواً عند المقدرة، شهماً أريحياً مع أعدائه إذا انتصر عليهم، وفق مفهوم الفروسية الإسلامية وكانت الشريعة مادة مجتمعة، وأداة عمله، والقضاء عنده في أعلى مقام. وكان حرياً بأن يتبع أسلوب رسول الله ﷺ في أعمق معنوياته وفي أدق مظاهره.

ولما قرأ أن رسول الله كان يخرج للحرب متقلداً السيف، أو معلقاً إياه في حمائل حول رقبته كأنها القلادة أصدر أمره إلى قواده بتقلد السيوف، وخرج هو بنفسه على هيئة سيف رسول الله.

ولقد تابع (صلاح الدين الأيوبي) خطط أستاذه وسيده (نور الدين) حتى فاقه وكتب له التاريخ أروع صفحة من الخلق والقيادة والنصر بحيث اختفى بجواره إسم نور الدين

المهد الحقيقي لما حققه صلاح الدين، ولقد ذهب كثير من المؤرخين إلى أن النصر الذي تم على يديه لم يكن نتيجة مصادر قوة حربية أو قيادة حاكمة بقدر ما كان مصدره: ذلك الصدق الوثيق والإيمان العميق، وقد شهد له خصومه من الكتاب الغربيين، وحتى اولئك الذين حملوا حملات ضارية على الإسلام عجزوا عن أن يتهموا صلاح الدين أو ينكروا مقوماته الإسلامية. يقول هاملتون جب: «لم يكن صلاح الدين إدارياً بارعاً ولعله لم يبد إلا رغبة ضئيلة في التفاصيل الإدارية ولم يكن صلاح الدين رجل حرب أو إدارة بحكم ميوله او تدريبه ولكنه هو نفسه الذي جمع حوله العناصر والقوى التي كانت تستهدف توحيد «الإسلام» في وجه الغزاة ووجهها وألهمها، ولم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمه الذاتيين في غالب الأحيان، وإنما حقق ما حققه ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه إنتماء إسمياً على حد سواء، ولم يكن صلاح الدين نفسه ساذجاً، ولكنه كان غاية في البساطة، فذاً في النزاعة، ولقد حير أعداءه من الأدنين والأبعدين، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم وأن يقوم بالألاعيب والمداورات السياسية مثل ما يفعلون، وكان هو نفسه طيب السريرة. ولذلك لم يكن يتوقع أبداً أن يفهم مكر الآخرين، وقلما فهمه، وذلك ضعف استغله فيه أحيانا أقرباؤه، إلا أنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من إخلاصه لمثله العليا إخلاصاً لم يكن لأحد من

الناس أو لشيء من الأشياء أن يزعزه من مكانه».

ويرجع الأمر الذي أدهش هاملتون جب إلى أصل بسيط جداً من اصول العقيدة، هو ان صلاح الدين كان يتحرى مفاهيم الإسلام في الأمانة والصدق والوفاء حتى مع خصومه، وانه كان يحاول ان يجد قدوته في الرسول ﷺ: قدوة كل قائد ومجاهد ومرجع كل من يتصدى لأمور المسلمين والعرب حيث يجد عنده «المثل الأعلى» الذي يصل به إلى الطريق: طريق النصر.

ولقد ظلت حركة المقاومة في مواجهة الصليبيين مضطربة غير حاسمة حتى استطاع «نور الدين أن يعطيها مضمونها الفكري والإجتماعي حين أعلن دعوته إلى إعادة التسلح الخلقي» وكأنما يبدو هذا المعنى غامضاً وغائباً عند جميع المؤرخين الذين كتبوا عن الحروب الصليبية وعن نور الدين وصلاح الدين فلا يمسونه إلا من بعيد، ولا يصلون إليه في فهم عميق. ومن عجب أن يلمسه «هاملتون جب» على نحو واضح صريح حين يقول: كان نور الدين يعمل من «داخل» البناء السياسي في عصره...

بل إن جهوده في سبيل ما يمكن تسميته «إعادة التسلح الخلقي» وذلك بمنح الزعماء والمصلحين الدينيين كل تأييد، لم تكن الأولى من نوعها... لقد أظهر «نور الدين» بصيرة ومقدرة تفوقان المستوى المعتاد في ذلك الزمن، وأنه لو طال

به الزمن لجاء الهجوم المضاد على الصليبيين أسرع عنفاً مما كان عليه في الواقع».

أما صلاح الدين فيرى «جب» أنه تلفت باقتدار وبعمق إلى أهمية هذا العمل الخلقي الإجتماعي يقول: كان طموحه «أي صلاح الدين» قد نشأ من بساطة خلقه وسداد رؤاه، لقد تجلى لعينيه أن ضعف المجتمع الإسلامي السياسي الذي سمح بتأسيس المملكة الصليبية واستمرار بقائها إنما نجم عن إنحطاط في الخلق السياسي، وعلى هذا الإنحطاط ثار صلاح الدين، ولم يكن امامه غير طريقة واحدة للقضاء عليه وهو أن يعيد الكيان الإسلامي في ظل دولة واحدة موحدة، وأن يبعث ذلك الكيان مجدداً، لا تحت حكمه هو، وإنما بأن يعود إلى حكم الشريعة».

وقد أورد صلاح الدين في بعض رسائله هذا المعنى حيث يقول: «هذه المقاصد الثلاث: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هم مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها والله يعلم أنه لا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم ولا ينوي إلا هذه النية».

ويقول جب: أن مثاليته كانت تخضع لنزعه عملية قوية. فالوضوح الذي كان يزن به كل خطوة يخطوها نحو غايته، وكل حالة لدى ظهورها تقفنا على سر التوسع المستمر في

سلطانه، ولما كان يعرف أن المشكلة التي يواجهها لم تكن « سياسة » فحسب بل هي إلى حد أكبر « أخلاقية نفسية » وأنه إذا ما عالجها على المستوى السياسي والعسكري فسيعجز عن حلها، أدرك أنه إذا شاء أن يصل إلى نتائج فعالة، فعليه أن يدعم الولاء السياسي بحوافز وروادع « أخلاقية ونفسية » ومن أجل أن يصل إلى غايته كان عليه ان يقوي أعماله والقدوة التي يخلقها بإيجاد تيار خلقي ونفسي يسند موقفه ويكون قوياً بحيث يتعذر مقاومته، وكان لذلك في حاجة إلى حلفاء، وبخاصة طبقة « فقهاء المدارس » قادة الرأي العام.

وهكذا تكشف الوقائع التاريخية ان « النصر » الذي حققه صلاح الدين في « حطين » ومن بعد في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة بعد حطين، إنما يرجع إلى ذلك الضمان الأخلاقي والروحي العميق الذي كان عاملاً هاماً بجوار القوى العسكرية والحربية التي كانت المعنويات تضاعفها في أيدي المجاهدين على النحو الذي تحقق للمسلمين في بدر وفي اليرموك وفي نهاوند.

ويوم عرف المسلمون طريقهم هو دعم معنوي خلقي مؤازر للدعم الحربي العسكري فقد أدال الله لهم من عدوهم وحقق لهم النصر في حطين وعين جالوت والزلاقة وجميع معاركهم مع الغزو الزاحف عليهم من آفاق الأرض.

* * *

آخر العامود:

قال زيد بن عمر: سمعت رجلاً يقول: بينا أنا بمكة إذ دفعت إلى الحجاج بن يوسف، فثنى لي وساداً فجلست، فبينما نحن نتحدث إذ سمعت صوت إعرابي في الوادي رافعا صوته بالتلبية (ان يقول الرجل: لبيك: لبيك) فقال الحجاج: علي بالملى فأتى به فقال: من الرجل؟ قال: من أفناء (أخلاط) الناس. قال ليس عن هذا سألتك. قال فعم سألتني؟ قال: من أي البلدان انت؟ قال: من أهل اليمن. قال له الحجاج فكيف محمد بن يوسف - يعني أخاه وكان عامله باليمن - قال خلفته عظيماً جسيماً خراجاً ولاجاً (عظيم الإحتيال) قال: ليس عن هذا سألتك. قال فعم سألتني؟ قال: كيف خلفت سيرته في الناس؟ قال: خلفته ظلوماً غشوماً عاصياً للخالق، مطيعاً للمخلوق.

فأزور عن ذلك الحجاج، وقال: ما أقدمك على هذا وانت تعلم مكانته مني؟ فقال له الإعرابي: افتراه بمكانه اعز مني بمكانتي من الله تبارك وتعالى وانا وافد بيته، وقاضي دينه... فوجم الحجاج ولم يجب حتى خرج الرجل بلا إذن.

(١٥)

حطين

« يوم الجمعة الرابع من شعبان ٥٨٤ هـ »

في هذا اليوم المبارك أقيمت لأول مرة صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى بعد أن استعـاده المسلمـون بقيـادة صلاح الدين الأيوبي وحرره من استعمار الصليبيين وكان يوماً حافلاً رائعاً من أيام الله الكبرى، فقد غص المسجد بالمسلمين الذين توافدوا من كل مكان وحضر صلاح الدين الجمعة وجلس بقبة الصخرة المقدسة على حد تعبير إبن شداد وهو في غايـة السرور والفرح إذ جعله الله تعالى في هذا الفتح بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاتح الأول وميزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الاسلام وألقى خطبة الجمعة القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي دمشق الذي بدأها بالآيات المباركات من سورة الإنعام.

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين »

الحمد لله رب العالمين: أيها الناس أبشروا برضوان الله

الذي هو الغاية القصوى لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضآلة من الأمة الضالة وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين وهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد ﷺ، وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الإسلام وهو مقر الأنبياء وأرض المحشر، وصعيد المنشر. الله أكبر».

وكانت موقعة (حطين) الظافرة يوم السبت ٢٥ ربيع آخر ٥٨٣ (الموافق ١١٨٧ م) قد حسمت الموقف مع الصليبيين تماماً حيث تحقق النصر الساحق لجيش المسلمين ولما اشتد القتال والفناء بصفوف الصليبيين لجأ من استطاع الفرار منهم إلى جبل (حطين) يقول العماد الأصبهاني فآووا إلى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار فأحاطت بحطين بوارق البوار ورشقتهم الظبا وفرشتهم على الربا ورشفتهم الحنايا وقشرتهم المنايا وقرستهم البلايا.

وأحاط المسلمون بالصليبيين إحاطة الدائرة بقطرها وإحاطة النار بأهلها: يقول إبن الأثير: ومنذ ملك الفرنج البلاد الساحلية واستولوا عليها لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين.

وصلى صلاح الدين لله صلاة الشكر على نعمة النصر وأجلس ملك القدس الصليبي بجانبه وأذن له بشربة ماء مثلوج وأمنه. وتسلم صلاح الدين قلعة طبرية وبسقوطها دانت جميع

البلاد الداخلة في نطاقها وتهاوت القلاع والمدن الصليبية واحدة بعد أخرى وفي خلال ثلاثة أشهر (على ما يروي الدكتور إبراهيم طرخان) ومن سقوط طبرية وواقعة حطين الفاصلة تم فتح القدس.

وعندما اتجه صلاح الدين صوب (عكا) فاستولى عليها أمن أهلها ومنح الصليبيين النازلين بها يوما واحداً للخروج منها وحمل ما يريدون حمله من المتاع والمال وفك أسر خمسة آلاف من المسلمين كانوا بها ثم اتجه جنوباً إلى (نابلس) واستولى عليها ثم سقطت (حيفا) ثم فتح قيسارية والناصرة وصيدا ثم بيروت.

وأحاط السلطان صلاح الدين بأسوار بيت المقدس في ليلة النصف من شهر رجب عام ٥٨٣ وكانت إحاطته بأسوارها من جهاتها الأربع، وكان الصليبيون قد جعلوا منها معقلا حصيناً، ومضى صلاح الدين يطوف المدينة ليقرر أضعف جهاتها للنفاذ منها رغبة منه في أن يقتحمها دون أن يعرضها للدمار.

يقول محمود عزت موسى في كتابه الناصر صلاح الدين: ليس أدل على روح صلاح الدين السمحة من أن المؤرخين المنصفين من الأوربيين ذكروا أن صلاح الدين أعلن لوفد الصليبيين الذي قدم لمفاوضته أن للقدس في نفوس المسلمين مكانة روحية كبيرة مثل التي يحملها لها المسيحيون لما تحويه من

مخلفات دينية مقدسة، من أجل هذا أهاب بهم أن يجنبوا المدينة المقدسة أهوال الحصار والهجوم وعرض عليهم شروط للتسليم تتسم بالسخاء والنبل بيد أن الشروط رفضت وركب الغزاة رؤوسهم».

وأضطر صلاح الدين إلى إقتحام بيت المقدس.

وعندما تدافع المسلمون إليها تساقط الصليبيون يائسين ولما ذهب صاحبهم قال له صلاح الدين:

هل لمدينة وقعت في الأسر أن تطلب شروط الصلح.

ولكن صلاح الدين في إيمانه العميق بالله، ارتضى حقناً للدماء أن يسمح للمحاصرين بالخروج من المدينة في مدة أربعين يوماً.

ولما دخل صلاح الدين بيت المقدس ظافراً منتصراً لم يسفك دماً ولم تنهب جيوشه بيتاً بل أمن الجميع على أموالهم وأمتعتهم. قالوا له: أما قد كتب لك للظفر على اعدائك فلم لا تنتقم وأنت تعلم أنهم قتلوا في معركة دخول بيت المقدس ٧٠ ألفاً في يوم واحد. قال: هذا يمنعني منه ديني وضميري.

قالوا: هل دينك يمنعك من الإنتقام من قوم بدءوك بالعدوان وساموا قومك الخسف والعذاب قال نعم: إن ديننا يمنعنا من أن نجاري خصومنا في عنادهم ويدعونا إلى أن نكون أوفياء لعهودنا وأن نصفح عمن اساء ولما قسمت غنائم

الحرب تنازل صلاح الدين عن نصيبه للفقراء واعتق آسراه.

وعندما بدأ الفرنجة يرحلون ترك لهم المدينة حتى لا يجرح شعورهم ووقف مناديه من مطلع الشمس حتى غروبها ينادي:

هل من فقير فنأويه أو عاجز عن دفع الفدية فنعطيه وعفا عن سبعة آلاف من العجزة عن الضريبة ودفع بعضها من جيبه الخاص ورفض أن يصادر أموال بطريرك بيت المقدس عند خروجه منها وسمح للفرنج الذي إذا شاءوا أن يقيموا أما المحاربون فكان عليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم وقد حمل الكهنة ذخائرهم الذهبية وخرجوا بها ولم يتعرض لهم أحد بأذى بل قدمت الدواب لكثير من الذين لا يجدون ما يركبونه وشهد المؤرخون الغربيون بكرم أخلاق صلاح الدين وسماحته وسجلوا انه عامل نساء الصليبيين معاملة حميدة وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات ومعهن أموالهن وأتباعهن وحشمهن.

وكذلك عامل الأميرات الأسيرات بكل تكريم وسمح لهن باطلاق سراحهن.

ولم يلبث صلاح الدين أن أمر بتنظيم أمور المدينة وإصلاح ما تهدم من مبانيها وجرت عملية تطهير واسعة للمسجد الأقصى وأقام منبراً جديداً للمسجد كان نور الدين في حلب قد أوصى به وأعاد ترتيب المدارس والمعاهد. يقول دكتور إبراهيم طرحان: أزال المسلمون آثار الصليبيين بالقدس

الشريف وكان الصليبيون قد أقاموا بعض المباني داخل المسجد الأقصى وشغلوا محرابه بالخبث والخنازير وبثوا في بعض جوانبه مخازن حبوبهم وكذلك في وجه المحراب وأعد المسجد بالبسط النفيسة وعلقت القناديل وأزيل الصليب الضخم الذي كان قائماً في أعلى قبة الصخرة وكانوا قد قطعوا أجزاء من الصخرة باعوها في القسطنطينية وجزيرة صقلية كل قطعة بوزنها ذهباً.

وجيء بأحمال ماء الورد حملها تقي الدين إبن أخ صلاح الدين وغسلت الصخرة وساحاتها حتى طهرت وبخرت بمجامر الطيب وأغدقت العطايا على الفقراء وحملت اليها المصاحف ووقفت عليها الأوقاف.

يقول العماد الأصفهاني في فتح القدس وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة مغدوق وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين المظفر يوسف بن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبني التاريخ وينسق.

تلك هي الجمعة الأولى من شهر شعبان ٥٨٣ حيث أقيمت الصلاة الجامعة بالمسجد الأقصى بعد اكثر من ثمانين عاماً منذ استولى عليه الصليبيون.

وقد سجل الشعر الإسلامي هذا الحدث الكبير: يقول الحسن الجويني:

جنـــد السماء لهذا الملـــك أعـــوان
من شك فيهـم فهـذا الفتـح بـرهـان
متى رأى الناس مـا نحكيـه مـن زمـن
وقـد مضـت قبلـه أزمـان وأزمـان
هـدى الفتـوح فتـوح الأنبيـاء ومـا
لـه سـوى الشكـر بـالأفعـال اثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيـد في يـده
صيداً وما ضعفوا يـومـاً ومـا هـانـوا
تسعـــون عـــامـــاً بلاد الله تصرخ
والإسلام أنصـــاره صم وعميـــان
فـالآن لبـى صلاح الديـن دعـوتهم
بـأمـر مـن هـو للمعـوان معـوان

والآن ما أشبه الأمس باليوم ونحن الآن نتطلع الى تحرير بيت المقدس بإذن الله بعد معركة العبور المشرفة ونسأل الله أن يعود إلينا فنصلي فيه صلاة الجمعة في موكب تاريخي إسلامي زاخر.

(١٦)

صلاح الدين الأيوبي

بعد حطين: الجهاد حتى الموت

توفي صلاح الدين الأيوبي (اول مارس ١١٩٣) في دمشق بعد مرض قصير وبعد أن استولى على بيت المقدس عام ١١٨٧ وكانت السنوات السبع الأخيرة من حياته من أشق سنوات النضال والمقاومة فلم يكن انتصار حطين هو النهاية وإنما كان مرحلة على طريق طويل، سار فيه صلاح الدين بعد ولم يتوقف، وظلت عزيمته حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ثابتة مصممة على أن يجلي هذا النفوذ الغربي، لم تلن قناته يوماً بعد النصر ولم يتردد أمام الحملة الصليبية الثالثة حين جاءت بل واجهها في صبر وثقة واحتمل هزائم المواقع الفرعية يقظاً ثابتاً مركزاً كل جهده على بيت المقدس حتى لا تخلص إليه قوة ما.

ولا تزال صفحات التاريخ بيضاء ناصعة لا تحمل في طياتها أي شبهة في أن صلاح الدين قد تراخى بعد حطين ودخول بيت المقدس أو أسكره النصر او استسلم لملوك الفرنجة

ولكنه جرى في كل مـواقفـه على القـاعـدة الأسـاسيـة التي استمسك بها منذ اللحظة الأولى وهي « خلق المسلم » وحاول أن يهتدي بأسلوب النبي ﷺ في معاملة أعدائه سمحاً كريماً لا يرد السيئة بالسيئة ولكنه يرد السيئة بالحسنة دون أسلوب غير أسلوب الثقة بالله ولقد كانت هذه السنوات السبع من اشد السنوات تأثيراً على صحته ومزاجه ونفسيته، ولكنه ظل صامداً تماماً حتى تحقق له النصر وخضع له العدو واستسلم لشروطه كاملة في صلح الرملة على النحو الذي أراده هو، فقد ظل ثابتاً في مكانه واضطر خصمه إلى أن يقبل وجهة نظره. أقول هذا في مواجهة بعض الكتابات التي تريد أن تصور صلاح الدين الأيوبي بأنه قبل وجهة نظر ريتشاردو أنه رضي بأن يرى في الجهاد أمراً باطلاً وأن حياة الناس خير من موت الناس. ذلك ان هذا ليس من مفهوم صلاح الدين لأنه ليس من مفهوم الإسلام. فالإسلام يرى أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة وأنه ما ترك الجهاد قوم قط إلا ذلوا وان موت في الحق هو عين البقاء وان الحرص على الموت يوهب عزة الحياة، غير أن الإسلام أيضاً يرى انه إذا جنح العدو للسلم فإن المسلم يجنح لها، لأنه لا يريـد إثـارة دمـاء المسلمين ولا مـواجهـة الأعـداء الا حين يقفـون في وجهـة دعـوتهم او اغتصـاب أرضهم.؟

وحين نراجع تاريخ صلاح الديـن بعـد معـركـة حطين

واستعادة بيت المقدس نجده لم يتوقف عن غايته الكبرى لحظة واحدة.

ففي كل مراجع تاريخه (إبن الأثير وابن شداد وأبو شامة وعماد الدين الكاتب وإبن واصل) نجد أنه لم يلبث ان مضى يفتح باقي المدن المحتلة على شاطىء البحر مثل صور وطرابلس وانطاكية فضلاً عن القلاع الداخلية التابعة لهم مثل حصن الأكراد وحسن المرقب، وسرعان ما استولى على حصني صغير وكوكب ثم هاجم بعد ذلك حصن الأكراد واتجه نحو بانياس في أقصى شمال إمارة طرابلس واستولى عليها ثم أوغل في إمارة إنطاكية، واتجه بعد ذلك لمهاجمة اللاذقية اكبر موانيها.

وفي نفس الوقت كان صلاح الدين يقدر خطر قدوم حملة صليبية جديدة فأخذ حذره وأعد عدته لهذا الإحتمال فحصن القلاع القوية حتى سقطت في يده وهدم المعاقل الضعيفة التي قد يفيد منها الصليبيون في المستقبل من جنوبي أنطاكية إلى شمالها ومن ثم أصبحت إمارتي أنطاكية وطرابلس (على حد تعبير الدكتور سعد الدين عاشور في كتابه الحركة الصليبية) مقصوصتي الجناحين. وكان حصار حصن الكرك ومنازلة الصليبيين فيه قد أدى إلى أن نفذت ذخائرهم وأكلوا دوابهم، وتعالت صيحات الصليبيين من كل مكان في طلب الأمان والإستسلام، لولا أن وصلت أنباء تحرك فردريك بربروسا في مائة ألف محارب (مايو ١١٩٠) الذين دخلوا أرض

الروم، وقد أدى اقتراب ذلك الجيش الضخم من الشام إلى جو من الفزع والرعب في كافة الأرجاء حيث بادر صلاح الدين بإعلان الدعوة إلى الجهاد وطلب المعونة من الأمراء وأرسل إلى الخليفة بذلك غير أن مفاجأة لم تكن في حساب المسلمين ولا الفرنجة، غيرت الموقف تماماً، تلك هي غرق الأمبراطور الألماني أثناء عبوره نهر صغير في (قيليقية) لم يلبث جنده أن تفرق بعدها وعاد بعض أمرائهم إلى الغرب الأوربي وتعرض الفريق الآخر لوباء شديد انتشر بينهم قرب نهر العاصي.

ثم لم تلبث أن وصلت القوات التي كان يقودها ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس عام ١١٩١ حيث بدأ أوغسطس بالهجوم على (عكا) التي قاومت مقاومة شديدة والتي لم تستسلم إلا بعد أن حوصرت قرابة عامين وغادر أوغسطس وترك تصفية الموقف بين الصليبيين وبين صلاح الدين إلى ريتشارد قلب الأسد الذي تهور في بعض المواقف، وقتل أسرى المسلمين وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم.

وقد أبى صلاح الدين أن يرد على هذا التصرف الوحشي ورفض أن يقتل من كان في حوزة المسلمين من أسرى الفرنجة وكانوا أعظم عدداً بكثير من أسرى عكا المسلمين وأغلق باب المفاوضات مع ريتشارد حول أي موضوع يتعلق ببيت المقدس، ومضى يستعد لقتال ريتشارد والصليبيين وفي معركة (أرسوف) لم يتمكن المسلمون من استرداد الموقع، ولكن

ذلك كان دافعاً لصلاح الدين إلى النظرة البعيدة فأخذ حذره من الوجهة التي تتجه اليها قوات الصليبيين وهي الوصول إلى بيت المقدس، ولـذلـك فـإنـه سرعـان مـا ضرب عسقلان وأحرقها بعد اجلاء الناس عنها حتى لا تقع في أيديهم واتجه إلى بيت المقدس حيث أشرف على الدفاع عنه وحصنه وأستعد لمواجهة الصليبيين الذين حين اقتربوا منه وجدوا أن صلاح الدين قد احكـم تحصينـه مما اضطـر ريتشـارد وقـواتـه إلى الإنسحاب عائدين إلى الرملة تحوطهم موجة من الأسى وخيبة الأمل وكان ذلك نصراً حقيقياً بعد المواقف الماضية، فقد اضطر ريتشارد إلى أن يكتب لصلاح الدين طالباً الدخول في مفاوضات من أجل الصلح. وأصر صلاح الدين على موقفه ورفض تسليم القدس.

قال ريتشارد: القدس متعبدنا فلا ننزل عنه ولو لم يبق منا إلا واحد.

وقال صلاح الدين: القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا ومحشر أمتنا فلا يتصور أن ننزل عنه. وحاول ريتشارد مرة أخرى الإستيلاء على بيت المقدس بعد شهور فردهـم المسلمـون خـائبين وانـزلـوا بهم الخسائر، فقد كان صلاح الدين قـد أعـد عـدتـه لمقـاومـة الصليبيين فوزع أسوار بيت المقدس على الأمراء للدفاع عنها وأحكم الحصار في كل جهة واخذ في إفساد المياه ظاهر

القدس فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب اصلا.

وحين فشل ريتشارد في مهاجمة صلاح الدين في بيت المقدس قطع طريق المواصلات بين مصر والشام. وبدا الموقف حرجاً، غير أن الصليبيين الذين جعل الله بأسهم بينهم اختلفوا في امر الزحف على بيت المقدس وانتهى الأمر إلى التحكيم الذي قرر رفض الرأي القائل بمهاجمة بيت المقدس وانسحب الصليبيون ناكصين على أعقابهم إلى الرملة وهناك بعثوا مرة ثالثة في طلب الصلح.

وأصر المسلمون على شروطهم الأولى واضطر ريتشارد إلى النزول على ما قرره المسلمون فقبل سيطرة المسلمين السياسية على بيت المقدس واكتفى بالتمسك بحق الصليبيين في حماية الأماكن المقدسة مع ضمان حرية الحج واستبعد صلاح الدين سيطرة الصليبيين عن عسقلان وما يليها من بعد الساحل تجاه مصر حتى لا يؤدي ذلك إلى قطع طريق الإتصال بين مصر والشام، ووافق صلاح الدين على ان يكون بقاء الصليبيين في البلاد الساحلية من صور إلى يافا شرط ان تكون عسقلان وما وراءها خراباً لا لنا ولا لهم.

ولم يلبث صلاح الدين أن قام بهجوم كبير على يافا وحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنجة غير أن الأسطول الصليبي عاد من عكا مسرعاً لإنقاذ يافا وبدا الموقف حرجاً

امام قوات صلاح الدين غير ان ريتشارد خر صريع المرض وفي ابان المرض دأب على طلب الفاكهة من صلاح الدين الذي لم يتردد في استحضارها خصيصاً له.

وبالرغم من هذه المحاولات المتعددة فقد ظل صلاح الدين قوياً في دولته الإسلامية الباذخة الممتدة من حلب ودمشق وبيت المقدس إلى وادي النيل تحيط بها البقايا الصليبية المتناثرة قرب شواطىء الشام.

وعاد ريتشارد إلى طلب الصلح من جديد وصمم صلاح الدين على شروطه واضطر ريتشارد ان يتنازل عن شرط استرداد عسقلان وغزة والداروم وكان في كل مرة يصر على ان يحتفظ بها الصليبيون.

وتم صلح الرملة في ٢ سبتمبر ١١٩٢ على شروط المسلمين ونص على حرية الحج إلى بيت المقدس للمسيحيين وأصبح الطريق إلى الحجاز مفتوحاً أمام المسلمين.

وفي هذا الموقف ومن مركز القوة تابع صلاح الدين أسلوب الإسلام والنبوة في المعاملة فأكرم كل من ورد من حجاج المسيحيين وشرع في مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم على الرغم من أن ريتشارد خشي أن يغضب صلاح الدين من دخول الوفود من غير علامة منه أو كتاب.

وما يمكن أن يوصف به هذا الموقف من صلاح الدين بأنه استسلام أو تهاون في عقيدته الصحيحة القائمة على جهاد

الغزاة حتى اجلائهم تماماً ولكنه كان يرى أن الموقف يحتمل مرحلة توقف ومهادنة، يقول القاضي إبن شداد رفيق صلاح الدين: إن صلاح الدين لم يرغب في الصلح ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة ويقول: والله العظيم أن الصلح لم يكن من ايثاره فإنه قال لي في بعض محاولاته في الصلح: أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى به هذا العدو. وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد على رأس قلعته.

ويرى المؤرخون أن صلاح الدين لم يمالىء ريتشارد ولم يذهب معه مذهب الإستسلام أو يعطي عن ذلة، بل لقد صمد في موقعه وتحمل كل المحاولات دون أن يفرط فيما صمم عليه حتى نزل عن ذلك ريتشارد وقبل من صلاح الدين.

ولكن صلاح الدين كان قد أدى رسالته فإنه لم تمض إلا خمسة شهور إلا قليلا حتى عبر الى الشاطىء الآخر مرضياً عنه من ربه وهو على نيته التي لم ينزل عنها: الجهاد حتى الشهادة.

(١٧)

وانهزمت القوى المغيرة على مصر

في ثلاث حملات متوالية

ثلاث حملات في نطاق الحروب الصليبية وجهت إلى مصر، بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ووجهت حملة واحدة في خلال حياته قام بها ملك صقلية النورماندي في يوليو ١١٧٤ وقد إنتصرت مصر على الحملات الأربعة وكانت قوتها الشعبية هي العامل الأكبر في النصر والحروب الصليبية مرحلة من مراحل مقاومة الإسلام جاءت في نهاية القرن الخامس الهجري بعد أن ظلت المقاومة مستمرة على الحدود الإسلامية البيزنطية زمناً طويلاً لم تتوقف فلما ضعفت بيزنطة عن المقاومة والصمود، جاءت فكرة الحروب الصليبية كخطوة أشد عنفاً وقسوة.

كذلك لا يمكن النظر إلى الحروب الصليبية في حملاتها التسع التي شنها الغرب على العالم الإسلامي إلا في إطار الخطة التي جرت بها محاولات الفرنجة إلى القضاء على الأندلس الإسلامية والإدالة منها.

وقد تمكن فردناند الأول صاحب قشتالة ان يشن الحرب المنظمة على الأندلس الإسلامية منذ منتصف القرن الخامس الهجري حتى تمكن الفونس السادس من الإستيلاء على طليطله عام ٤٧٥ هجرية وذلك يسبق دخول الصليبيين إلى بيت المقدس بأكثر من خمسة عشر عاماً.

وقد مدت أوربا يديها: إحداهما إلى أسبانيا حيث والت عمليات الأدالة من دولة الإسلام فيها والأخرى الى بيت المقدس حيث وصلت الحملة الصليبية الأولى عام ٤٩ واستولت على القدس.

ولكن الحملة الصليبية الثانية لم تصل إلى شواطىء الشام إلا بعد الإنتصارات المتوالية التي حققها نور الدين محمود عندما أدال من المملكة الصليبية وحطم قواعدها في حارم عام ٥٥٩ وتوالت هجماته على بانياس وحصن القنطيرة وقلعة جعبر على توالي السنين.

ثم سقوط الرها وقد كان لسقوطها دوي شديد أزعج القرب فجاءت الحملة الثانية، وقد تحولت إلى دمشق فتقدم نور الدين محمود وهزم الصليبيين بها وأرغمهم على رفع الحصار عن دمشق والعودة إلى أوربا فاشلين عام ٥٩١ هجرية.

وكان هذا كله مجرد تمهيد لظهور الفارس الإسلامي الكبير: صلاح الدين الأيوبي تلميذ نور الدين وخليفته على العمل الإسلامي بكل مقوماته وأساليبه وقد كانت معركة

حطين عام ٥٨٣ هجرية موقعة فاصلة في تاريخ الحروب الصليبية.

غير أن أوربا لم تنتظر الأحداث وإنما حاولت أن تسبقها فأرسلت حملة ملك صقلية النورماندي عام ٥٧٠ هجرية بعد وفاة نور الدين مباشرة وهي المعروفة بحملة غليام على الإسكندرية في ٢٨ يوليو ١١٧٤ وهي حملة دبرت من خلال مؤامرة قام بها خصوم صلاح الدين في الداخل لإسقاطه مستعينين بالفرنجة وكان صلاح الدين مقدراً تماماً للأخطار التي تحيط به وخاصة صاحب صقلية.

وكان صلاح الدين قد ملك طرف البحر الأحمر من الجنوب ونشر أيله من الشمال إعداداً لخطته الحاسمة في هزيمة الصليبيين وقد تمكن في نفس الوقت من القضاء على المؤامرة الداخلية بالقبض على مدبريها، ولكن أطراف المؤامرة لم يتبينوا ذلك إلا بعد أن وصلت أساطيلهم إلى شواطىء الإسكندرية، وقد فشلت الخطة وهزم النورمانديون الذين عرفوا بمجرد وصولهم أن أعوانهم الذين استدعوهم قد سقطوا.

وقد بلغت سفن الفرنجة التي قدمت من الشام ومن صقلية قريباً من ثلاثمائة سفينة وقد دافع المسلمون عن مدينتهم دفاعاً مجيداً قبل أن تصل إليهم إمدادات الجيش.

وجاءت هزيمة الصليبيين في حطين مقدمة للحملة الصليبية

الثالثة التي وصلت الى شاطىء الشام بقيادة ثلاثة من ملوك أوروبا: فردريك بربروسا إمبراطور المانيا الذي غرق قبل أن يصل وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا. وقد واجهها صلاح الدين وأدال منها وحال بينها وبين تحقيق أملها في استعادة القدس.

ثم مات صلاح الدين ٥٨٩ هجرية.

واختلفت إتجاه الريح فقد بدأت الحملات الصليبية تتجه إلى مصر بدلا من الشام فاتجهت إليها الحملة الصليبية الخامسة التي نزلت عند دمياط ٦١٥ هـ وتقدم الصليبيون وإستولوا على دمياط.

وكانت خطتهم ان يتنازل لهم الملك الكامل عن القدس في مقابل إنسحابهم من مصر وكاد الملك أن يفعل لولا أن قوات المجاهدين أجابت على السؤال فقد تجمعت هذه القوات المؤمنة في شرق الدلتا، وقد أحكمت خطتها حيث قطعت جسور النيل لإغراق الصليبيين فلما أحس هؤلاء بالخطر تدفقوا متراجعين إلى الشمال حيث كانت قوات المجاهدين تنتظرهم لتحصدهم حصداً من كل جانب وانتهى الأمر بخروجهم من مصر دون أن يحققوا أي نصر.

وجاءت الحملة الصليبية السابعة إلى مصر مرة أخرى بقيادة لويس التاسع ونزلت دمياط عام ٦٤٧ هجرية.

ولكن المجاهدين كانوا قادرين على هزيمة المعتدين، وقد

ثبتوا في شمال الدلتا وشرقها ثم جاءت المعركة بقيادة بيبرس الذي قاد الهجوم المنظم بعد ان أنهك المجاهدون قوى العدو فكان لهم النصر.

لقد فتح المصريون جسور النيل مرة أخرى فأغرقوا القوات التي اضطرت إلى التسليم بدلاً من الإبادة التي كانت تنتظرهم.

ووقع لويس التاسع في الأسر (المحرم ٦٤٨ هجرية) وسجن في دار ابن لقمان وافتدى نفسه بأن دفع أربعمائة ألف دينار وعاد الصليبيون من مصر مهزومين للمرة الثالثة.

وهكذا تداخلت المعارك على مختلف الجبهات: جبهة الأندلس وجبهة الشام ومصر وكان استيلاء التتار على بغداد ٦٥٦ هجرية نقطة خطر ثالثة حيث ترابط التتار والصليبيون وتعاقدوا على المؤامرة وانتهزوا فرصة ضعف المسلمين وعودة الصليبيين إلى احتلال بيت المقدس مرة أخرى للضغط على المسلمين.

وقد واجه المسلمون سقوط بغداد بمزيد من الإيمان والقوة والصمود والتجمع.

«ولما رأى المؤمنون والأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله».

وقد جاء سقوط بغداد بعد استعادة الصليبيين لبيت

المقدس عام ٦٢٥ هـ. حيث تقدم الملك فردريك نحو عكا في خمسمائة فارس ومنها اتجه إلى يافا فقام بتحصينها تمهيداً للهجوم على بيت المقدس وتم الإتفاق بين الملك الكامل ملك مصر وفردريك على عقد صلح مدته عشر سنوات على أن يقتسم المسلمون والصليبيون مدينة القدس فيأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة، وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين ولا حكم فيها للفرنجة وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين ولا يدخله الفرنجة إلا للزيارة فقط ويتولاه أقوام من المسلمين كما اشترط أن يبقى بيت المقدس على ما هو عليه دون أن تجدد أسواره.

ولكن الصليبيين لم يلبثوا أن عادوا لتعمير قلاع القدس وأبراجها مخالفين بذلك شروط الهدنة ومنتهزين فرصة وفاة الملك الصالح.

وكان ذلك تمهيداً لحملة صليبية جديدة وصلت إلى عكا ٦٣٧ هـ وكان ذلك في الواقع أخطر تحد واجه المسلمين.

ولكن المسلمين استطاعوا أن يستعيدوا بيت المقدس مرة أخرى وذلك ما نفصله في الحلقة القادمة.

(١٨)

« القدس بعد صلاح الدين »

وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى بيت المقدس عام ٤٩٢ هجرية ١٠٩٩ ميلادية واستعاد المسلمون بيت المقدس نهائياً عام ٦٤٢ هجرية ١٢٤٤ ميلادية وصفيت الحملات الصليبية نهائيـاً وسقطـت آخـر معـاقلهـا في أيـــدي المسلمين ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م وذلك باستيلاء الإشراف خليل على عكا.

وبهذا يمكن القول أن بيت المقدس ظل في أيدي الصليبيين مائة وتسعين عاماً لم يتوقف المسلمـون خلالها عـن المقـاومـة والجهاد في سبيل إستعادتها.

وقد كانت أكبر معارك المقاومة الظافـرة هـي معـركـة « حطين » التي قادها البطل صلاح الدين والتي حققت نتائج باهرة، أتاحت للمسلمين إستعادة السيطرة على بيت المقدس بعدها بقليل فقد جرت موقعة حطين عام ٥٨٣ هجرية ١١٨٧ م (٤ يونية) وفي (١٢ أكتوبر) من نفس العام إسترد صلاح الدين بيت المقدس، ودخل المدينة في يوم الجمعة ٢٧

رجب (في ذكرى الإسراء والمعراج) وصلى الصلاة الجامعة في بيت المقدس.

ثم واصل صلاح الدين انتصاراته فسقطت المعاقل الصليبية في يده واحدة بعد أخرى ولم يبق من مملكة بيت المقدس في أيدي الصليبيين غير بضع مواقع أهمها (صور) التي تأخر صلاح الدين في الإستيلاء عليها عقب سيطرته على عكا، في من ثم تجمعت فيها البقايا الصليبية التي خرجت من مختلف مدن وحصون مملكة القدس.

والمعروف إنه كان لسقوط بيت المقدس رد فعل عنيف في أوربا مما دفع إلى تحرك الحملة الصليبية الثالثة التي قادها فردريك بربروسا إمبراطور المانيا، وريتشارد قلب الأسد والتي وصلت إلى صور ١١٩١ والتي حققت بعض النجاح حيث دخل الصليبيون عكا بعد أن حوصرت عامين كاملين وقد حاول ريتشارد ملك إنجلترا السيطرة على بيت المقدس غير أن خطته باءت بالفشل وهزمت قواته هزيمة ساحقة، وكان صلاح الدين قد أعد عدته للدفاع عن المدينة وأحكم تحصينها مما أضطرهم إلى التماس الصلح مع صلاح الدين حيث طلب ريتشارد الدخول فيها وقد كانت قاعدة صلاح الدين: «القدس متعبدنا فلا ننزل عنه ولو لم يبق معنا رجل واحد».

وقد تم على أثر ذلك عقد صلح الرملة ١١٩٢ م وقد نص الصلح على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى

يافا أما عسقلان فتكون للمسلمين، والرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين.

أما بالنسبة للأماكن المقدسة فقد نصت الإتفاقية على أن يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأي ضريبة مقابل ذلك.

وبذلك أصبح الطريق إلى الحجاز مفتوحاً أمام المسلمين والطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام المسيحيين.

ولم يلبث صلاح الدين أن توفي في مارس (٥٨٩ هـ) ١١٩٣ م وهنا تبدأ مراحل جديدة من تاريخ الحروب الصليبية وبيت المقدس، فقد انقسمت الدولة وتنازعها أبنائه مما اغرى الأوربيين بالقيام بحملة صليبية جديدة لمحاولة استرداد بيت المقدس من المسلمين.

ولم تلبث جموع الصليبيين أن توافدت على الساحل الشامي، وإن لم تستطع هذه القوات أن تحقق نتيجة ما ولما تقدمت الحملة الرابعة ووصلت فلولها إلى عكا حالت القوات المصرية السورية دون تقدمها نحو بيت المقدس، وفي ظل هذه الهزائم المتوالية لمحاولات استعادة بيت المقدس، إتجه الرأي في أوربا إلى الهجوم على مصر باعتبارها مفتاح الموقف كله ومن ثم اتجهت الحملات الصليبية إلى مصر فوصلت إلى دمياط (٦١٦ هـ ١٢١٩ م) وقد إنهزمت هذه الحملة ولم تحقق غرضاً غير أن الإختلاف بين أمراء المسلمين دفع بعضهم إلى

الإستعانة بملوك أوروبا ضد البعض الآخر، ومن ذلك ما جرى من مراسلات بين الملك الكامل حاكم مصر وبين فردريك ملك ألمانيا، وكان الكامل قد عرض عليه مراراً أخذ بيت المقدس مقابل الجلاء عن دمياط، ومن هنا فقد طمع فردريك أن يصل إلى المشرق فيحقق ذلك الهدف الضخم دون إراقة دماء، وكان مطمع فردريك الحصول على بيت المقدس مقابل ما يقدمه للملك الكامل من مساعدات ضد أخيه الملك المعظم صاحب دمشق ولكن الموقف كان قد تبدل ولم يعد هناك حاجة للملك الكامل إلى نصرة صديقه فردريك غير أن فردريك الذي ساء موقفه في أوربا اراد أن يستعيد مكانته بالحصول على هذه الصفقة اليسيرة ومن هنا فقد تقدم في خمسمائة فارس إلى عكا عام ١٢٢٨.

ثم إتجه إلى يافا وقام بتحصينها كمقدمة للهجوم على بيت المقدس، ثم كان أن تم الإتفاق بين الكامل وفردريك على عقد صلح لمدة عشر سنوات على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة فضلاً عن مدينتي نيبين وصيدا، أما بخصوص بيت المقدس فقد اشترط الصلح أن تبقى على ما هي عليه ولا يجدد سورها، وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين، لا حكم فيها للفرنجة، وأن الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين ولا يدخله الفرنجة إلا للزيارة فقط.

ويتولاه قوام من المسلمين ويقيمون فيه شعائر الإسلام من

الآذان والصلاة وينص العقد على أن يتعهد فردريك بالدفاع عن السلطان الكامل أمام أعدائه المسلمين والمسيحيين سواء وهكذا إستطاع فردريك الثاني أن يحصل لأوربا على بيت المقدس دون أن يدخل وأن يمنع أي حملة صليبية أوربية من المجيء الى الشواطىء الأيوبية بمصر والشام وهكذا استطاع فردريك الثاني أن يحصل لأوربا على بيت المقدس دون أن يدخل معركة حربية أو يخسر جندياً واحداً.

ولم يلبث الكامل أن نـادى بخروج المسلمين مـن القـدس وتسليمه إلى الفرنج (المقريزي = السلوك جـ ١).

ولكن تسليم بيت المقدس للصليبيين على هذا النحو، بعد أن استردها صلاح الدين بعد معارك عنيفة كان له رد فعل سيء في العالم الإسلامي كله وقد عم السخط والأسف جميع الأنحاء.

«وعز على المسلمين الخروج من مدينة القـدس وتسليمهـا للعدو دون قتال واعتبروا هذا الإجراء من السلطان الكامل خيانة كبرى للإسلام من الوصمات التي دخلت على المسلمين ووقع بسبب ذلك ومن عظيم وإرجاف شديد فقامت القيامة في جميع البلاد الإسلامية، واقيمت المآتم وسارت العساكر وأحدقت بدمشق من كـل جـانـب واشتـد هجـوم النـاس وإنكارهم على الكامل [١]».

(١) نظير حسان سعودي: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي.

« ويبدو أن السلطان الكامل أحس أنه تورط مع ملك الفرنج فحاول أن يهون من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين[1] » .

وقد ظلت مدينة بيت المقدس منذ إستيلاء الصليبيين عليها ١٢٢٩ م مدينة مفتوحة لها من وسائل الدفاع أو الجماعة ما يكفل الدفاع عنها ضد أية محاولة تستهدف طرد الصليبيين منها .

ولكن الصليبيين لم يلبثوا ان إنتهزوا فرصة الشقاق بعد وفاة الملك الكامل وأجروا تعميراً لقلاع القدس وأبراجها مخالفين في ذلك شروط الهدنة ، ولم تلبث أوروبا أن دعت إلى حملة صليبية جديدة وصلت الى عكا أول سبتمبر ١٢٣٩ (٦٣٧ هـ) .

ولم يكن الموقف يحتمل الإنتظار ، ولم يكن هناك من سبيل إلا أن تتقدم قوة جديدة شابة لتواجه الأزمة إزاء الصراع القائم بين أمراء المسلمين وتقدم الصليبيين لتحقيق إنتصارات جديدة .

وكانت هذه القوة ممثلة في « الأتراك الخوارزمية » الذين كانوا مشتتين في شمال العراق والشام بعد وفاة سلطانهم جلال الدين الخوارزمي ، وقد كتب إليهم السلطان الصالح أيوب

---

(١) سعد الدين عاشور : الحركة الصليبية .

يستدعيهم إلى مصر لمؤازرة قواته ضد خصومه وحلفائه، غير أن الخوارزمية تقدموا في يونية ١٢٤٤ - ١٤٢ هـ وعبروا الفرات في عشرة آلاف فارس جنوب الشام ومنه إتجهوا في قوة إلى مدينة بيت المقدس وانقضوا عليها يوم ١١ يوليو، وسحقوا قوات الصليبيين وسيطروا على بيت المقدس وحرروه نهائياً من نفوذ الصليبيين وبذا فقد الصليبيون هذه المدينة نهائياً وأصبحت في أيدي المسلمين منذ ذلك الوقت حتى سيطر عليها الإحتلال البريطاني عندما دخلها الجنرال اللنبي ١٩٢٧ وقال قولته المشهورة: الآن إنتهت الحروب الصليبية.

ولم يكن هذا العمل من الخوارزمية خاضعاً لتوجيه معين، ولكنه كان إندفاعاً إسلامياً بوحي من مشاعرهم وإيمانهم.

ولم يتوقف الخوارزمية بعد تحرير بيت المقدس، بل اتجهوا في جرأة وسرعة إلى غزة لمؤازرة حلفائهم المصريين وفي ظاهر غزة (أكتوبر ١١٤٤) دارت معركة شديدة بين القوات الإسلامية وقوات الصليبيين إنتهت بعد ساعات بالنصر المؤزر للقوات العربية الإسلامية، وفقد الصليبيون اكثر من ثلاثين ألفاً «وركب المنتصرون أقفية قلوبهم» حتى قاب قوسين أو أدنى من عكا قاعدة الصليبيين.

وتوصف هذه المعركة في تقدير الباحثين والمؤرخين بأنها «حطين الثانية» وهي أشبه بحطين الأولى في نكبة الصليبيين «معنوياً ومادياً»، لأنها أفقدتهم جميع الإنتصارات السياسية

التي جنوها كما أفقدتهم زهرة فرسانهم وقادتهم[1].

وقد وقعت معركة حطين الثانية في عهد السلطان الصالح أيوب.

ولم يلبث الوجود الصليبي في فلسطين أن دخل في مرحلة التصفية وقد كان للظاهر بيبرس دور ضخم في إستخلاص هذه الإمارات واحدة بعد واحدة نتيجة لحملاته العنيفة التي جردها عليهم حتى تزعزع مركز بقائهم في ساحل الشام مما عجل باجلائهم من بعد.

وكان قلاوون وإبنه الملك الأشرف من أبرز المجاهدين في سبيل تصفية آخر قلاع الصليبيين، وفي عهد الأشرف عادت عكا في أيدي المسلمين ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م، وكان لإستعادة عكا صدى بعيد في العالم الإسلامي، فقد كان ذلك نهاية لآخر حلقات الغزو الصليبي.

---

(١) نظير حسان سعودي: الحرب والسلام.

(١٩)

حطين الثانية

عودة بيت المقدس إلى المسلمين

إسترد المسلمون بزعامة صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس عام ٥٨٣ هجرية (١١٨٧ م) وكان لذلك رنة فرح وسرور في عالم الإسلام وصيحة أسى وفزع في قلوب الصليبيين وقد عجل ذلك النصر بتحرك الحملة الصليبية الثالثة التي وصلت إلى صور في قيادتها فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا والتي تمكنت من دخول عكا بعد أن صمدت عامين كاملين في وجه الغزو.

وباءت خطة هذه الحملة وقادتها في الوصول إلى بيت المقدس أو محاصرته فقد أحكم صلاح الدين تحصين المدينة المقدسة وحشد قواته لحمايتها واستمات المسلمون في سبيل رد العدوان عنها مما إضطر ريتشارد أن يطلب من صلاح الدين الصلح تمهيداً للإنسحاب.

وقد شرط صلاح الدين شرطه الحاسم كقاعدة للمفاوضات في عبارة واضحة دقيقة حين قال:

إن القدس هو متعبدنا فلا ننزل عنه ولو لم يبق معنا غير رجل واحد.

وفي صلح الرملة سمح للصليبيين بالبقاء في المنطقة الساحلية من صور إلى يافا كما نص على حرية الحج إلى بيت المقدس للمسيحيين دون مطالبتهم بأي ضريبة في مقابل ذلك. ولم يلبث صلاح الدين إلا قليلا حتى توفي (عام ٥٨٩ هجرية) ١٠٩٣م بعد أن خلد في التاريخ بطولة معركة (حطين) كأقوى ضربة في معركة الحروب الصليبية كلها وكإحدى المواقع الكبرى في تاريخ الإسلام ترتبط بالقادسية ونهاوند واليرموك وتختلف عنها في أنها من مواقع الدفاع عن حوذة الإسلام.

ثم بدأت بعد صلاح الدين مرحلة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية وبيت المقدس استغلت فيها أوربا فرصة الخلاف بين أبناء صلاح الدين وحلفائه الذين إستعان بعضهم على البعض الآخر ببطانة من دونهم حيث جاء فردريك الثاني مظاهراً للملك الكامل على إخوته. وكان الكامل قد أرسل إلى فردريك لنجدته في مواجهة خلافه مع شقيقيه الملك المعظم والملك الأشرف بعد أن وقع الخلاف بينهم، وقد طلب أبان إحتدام الصراع إلى الإمبراطور فردريك أن يحضر إلى الشام والساحل مظاهراً له على إخوته، ووعد بأن ينزل له عن بيت المقدس غير أن هذا الخلاف حسم بوفاة الملك المعظم قبل قدوم فردريك، حيث إتفق الكامل والأشرف على إقتسام

بلاد المعظم وخرج الكامل فعلا على رأس جيش عظيم واحتل بيت المقدس ونابلس.

غير أن الإمبراطور فردريك لم يلبث أن وصل واضطر الكامل إلى أن يعقد معه صلحاً في (١٨ فبراير ١٢٢٩) لمدة عشر سنوات على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة، واشترطت نصوص الصلح بشأن بيت المقدس أن تبقى على ما هي عليه من الخراب ولا يجدد سورها وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين ولا حكم فيها للإفرنج وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى في أيدي المسلمين لا يدخله الإفرنج إلا للزيارة ويتولاه قوام من المسلمين ويقيمون فيه شعائر الإسلام من الأذان والصلاة.

ولقد كانت هذه المصالحة ذات رد فعل خطير في نفوس المسلمين وكانت مصدر معارضة خطيرة من جموع العلماء وذوي الرأي أن يقبل ملك مسلم بأن يسلم القدس إلى الفرنجة مقابل مطمع شخصي وأن يحصل فردريك على بيت المقدس دون أن يدخل معركة وقد إشتد على أثر ذلك البكاء والعويل وعظم الصراخ والإنتحاب وحضر الائمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الآذان، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشائعات وأحس الملك الكامل باقترافه الذنب فحاول الإعتذار عنه غير أن هذا الموقف لم يستمر طويلاً فقد وقع ذلك عام ٦٢٦ هجرية فإنه لم تمض أكثر من خمسة عشر

عاماً حتى استعاد المسلمون بيت المقدس مرة أخرى في معركة ضارية وصفت بأنها (حطين الثانية) وكانت أكبر عناصر النصر فيها قوة الخوارزمية.

* * *

يقول تقي الدين أحمد بن علي المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) (في سنة إثنين وأربعين وستمائة قطع الخوارزمية الفرات ويقودهم الأمير حسام الدين بركة خان وهم زيادة على عشرة آلاف مقاتل فسارت فيهم فرقة على بقاع بعلبك وفرقة على غوطة دمشق.

وهجم الخوارزمية على القدس وساروا إلى غزة فنزلوها وساروا إلى الملك الصالح نجم الدين في صفر يخبرونه بقدومهم، فأمرهم بالإقامة في غزة ووعدهم ببلاد الشام وسير اليهم الخلع والأموال.

وقال: التقى ألقوم مع الخوارزمية بظاهر غزة ودارت بين الفريقين حرب شديدة وأحاط الخوارزمية بالفرنجة حتى أتوا عليهم قتلاً وأسراً ولم يفلت منهم إلا من شرد فكان عدد من أسر منهم ثمانمائة رجل وقتل من أهل الشام (يقصد نصرائهم) زيادة على ثلاثين ألفاً وقدمت البشارة إلى الصالح نجم الدين بذلك في الخامس عشر من جمادي الأول فأمر بزينة القاهرة وظواهرها وقلعتي الجبل والروضة وتعقب الخوارزمية فلول الفرنج إلى القدس. ١. هـ.

هؤلاء الخوارزمية هم جنود السلطان جلال الدين منكبرتي الذي استشهد في معارك المقاومة ضد غزو المغول لأزربيجان وأرمينية الكبرى، وكان قد استقر جزء منهم (كما يقول الدكتور سعد الدين عاشور في كتابه الحركة الصليبية) في الجزيرة حول الرها وحران ونصيبين، وكان الصالح أيوب قد استعان بهم وأرسل إليهم في مواجهة مؤامرة الصليبيين مع بعض الأمراء لغزو مصر، فلم تكد دعوة الملك الصالح تصل إليهم حتى اندفع منهم عشرة آلاف نحو مواقع الصليبيين فأغاروا على المدن والقلاع واستولوا على طبرية ونابلس ومنها قصدوا بيت المقدس وسيطروا عليه عام ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) وقد طلب من بالمدينة من الفرنجة من الملك الناصر داود تأمين خروجهم فقبل ذلك وسمح لهم بالخروج قاصدين يافا وبذلك عاد بيت المقدس نهائياً إلى المسلمين وظل في أيديهم حتى أواخر الحرب العالمية الأولى.

وتوصف هذه المعركة في كتب التاريخ بموقعة غزة الثانية ولم يكن الخوارزمية وحدهم هم الذين حققوا النصر بل اشتركت معهم قوات من جيوش الصالح أيوب ويطلق عليها موقعة حطين الثانية ومعنى هذا أن الصليبيين لم يتمكنوا من السيطرة على بيت المقدس بين إنتصار حطين الأولى ٥٨٣ هـ وبين انتصار حطين الثانية ٦٤٢ هـ إلا ستة عشر عاما نتيجة تصرف أدانته كل قوى الخير والحق وقع من الملك الكامل تحت تأثير مطامحه الشخصية ولا يزال هذا العمل الباهر من

الخوارزمية المسلمين الخمس موضع تقدير التاريخ حيث صدر عن عواطف إسلامية خالصة وغيرة على مقدسات الدين وحرماته من أن ينتهكها من كانوا يفسدون في الأرض فقد أشار القاضي جمال الدين بن واصل أنه مر بالقدس عام ١٢٤٤ قال رأيت الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخمر ورأيت الجرس في المسجد الأقصى وأبطل الآذان بالحرم ولقد كانت معركة حطين الثانية مقدمة للحملة الصليبية السابعة التي أرسلت إلى مصر بقيادة لويس التاسع والتي انهزمت شر هزيمة ولم يضعف المد الإسلامي بعد ذلك بل تعالى فجاءت على الأثر موقعة الزلاقة في الأندلس وموقعة عين جالوت في المشرق.

وحلت على إثر ذلك مرحلة تصفية المملكة الصليبية في الشام عندما اندفع الظاهر بيبرس في خلال السنوات العشر التالية لمعركة عين جالوت فاستولى على قيسارية وأرسوف وصفد ثم على يافا وأنطاكية وكانت من أقوى وأمنع الإمارات الصليبية الباقية.

ثم جاء السلطان قلاوون وإبنه الملك الأشرف فكانا من أبرز المجاهدين في تصفية آخر قلاع الصليبيين حيث عادت عكا إلى المسلمين في عهد الأشرف ٦٩٠ هـ (١٢٩١).

وكان يوم ١٨ جمادي الآخرة ٦٩٠ الموافق ١٨ مايو ١٢٩١ هو آخر أيام الصليبيين في عالم الإسلام وساحل الشام.

هكذا يعيد التاريخ نفسه مرة أخرى وتبدو علامات الأمل في أيامنا هذه قائمة واضحة وهي تنظر بثقة إلى عودة بيت المقدس إلى المسلمين مرة ثالثة إن شاء الله.



(٢٠)

إسلام بركة خان

بداية المد الاسلامي ونهاية التآمر

الصليبي التتري

منذ عام ٦٠٠ هجرية والعاصفة التترية تكتسح أرض الإسلام وتمتد من الشرق إلى الغرب حتى وصلت إلى بغداد عام ٦٥٦ هـ عندما زحف هولاكو على عاصمة الخلافة الإسلامية فدمرها وقتل الخليفة المستعصم وجلة العلماء والفقهاء ولم نتوقف الحملة الضارية عن الزحف حتى وصلت إلى أطراف الشام بعد عامين وأوشك أن يغير على مصرفي طريقها إلى أوربا.

وكان قد عم العالم الإسلامي ظلام كثيف ويأس كثير وبلغت القلوب الحناجر، فقد كانت المملكة الصليبية في الشام تصارع المسلمين بعدوان راسخ الدعائم عندما وصلت الحملات الصليبية لأول مرة إلى بيت المقدس ٤٩٢ هـ.

وكانت الحملة السادسة قد توجت إلى شواطىء مصر واحتلت دمياط ٦١٨ هـ، وتوالت الحملات حتى هزمت الحملة الصليبية السابعة في المنصورة وما زالت جراحات ما بعد إستعادة بيت المقدس بعد تخليصه تملأ نفوس المسلمين بالأسى.

غير أن موقعة عين جالوت الحاسمة وضعت حداً لذلك المد التتري وأوقفته، وعملت على تحطيم الخطوط التي بدأت تتصل بين التتار والصليبيين من أجل تطويق الجبهة الإسلامية.

ولا تزال (عين جالوت) في تقدير المؤرخين المنصفين موقعة فاصلة من المواقع التي غيَّرت وجه التاريخ وفتحت صفحة جديدة لتحول في الجانب الآخر، فقد انهت المد التتري الصليبي وحولته إلى جذر شديد.

وكانت (عين جالوت) كذلك عامل الانقاذ الذي حفظ الحضارة الإسلامية وحال بينها وبين الفناء ووقى حوض البحر الأبيض وأوربا شر الغارات المغولية التي كان يشنها التتار منذ خرجوا من قلب آسيا قبل ذلك بأربعين عاما عندما تحركت زحوف المغول عام ٦١٧ من سهول آسيا الوسطى وأطراف الصين واجتازت نهر جيحون فقد إندفع جيش التتار لا يقف في وجهه شيء وظل يحطم ويدمر كل ما في طريقه حتى وصل بغداد فسقطت تحت سنابك الخيل عام ٦٥٦ هـ.

ولكن الضربة لم تتأخر طويلاً فإنه لم يمض إلا عام واحد

ثم جاءت معركة عين جالـوت الإسلاميـة العـربيـة المصريـة الظافرة عام ٦٥٨ فأعادت الأمور إلى نصابها وكفت العالم كله شر هذا الخطر الماحق.

كان التتار قد اقتحموا أسـوار حلـب بعـد حصـارهـا وتفرقت القوى أمام هذه القوة المخيفة المهولة ودخل (كتبغا) قائد التتار عاصمة الأمويين وذهل الناس وتوجسوا شراً وخيفة وكان معروفاً ان الدور على مصر، وكان النصر المتتابع الذي حققه التتار منذ خرجوا من أعماق الصين قد ملأ قلوبهم غروراً حتى ظنوا أن قوة ما لا تستطيع أن تقف في وجههم.

ولكن الجيش الإسلامي العربي المصري لم يلبث أن اندفع في سرعة فائقة فحطم كل الحواجز التي أمامه وفاجأ جيش التتار قبل أن يخطو خطوة واحدة عند (الصالحية) فقد طوت قوات الجيش صحراء سيناء فأذهلت التتار الذين أخذوا على غرة، وبضربة واحدة كسب الجيش نصف المعركة وتقهقر جيش التتار لأول مرة وأخلى (غزة) وتقدم جيش الإسلام من غزة إلى الشمال حتى وصل إلى جبال الكرمل وفي عين جالوت وفي يوم ٢٥ رمضان ٦٥٨ التقى الجيشان وكان التتار في أربعمائة ألف مقاتل، وكان الجيش الإسلامي المصري أقل من ذلك بكثير، شأن جيـوش المسلمين في مختلـف المعـارك قاطبة، ليس لديها ما لدى غيرها من العدد والعدة ولكنها تحمل قلوبا عامرة بالإيمان بالله والفداء ودعوة حارة هي الله أكبر واندفاعا للموت في سبيل الإستشهاد من أجل نصرة

كلمة الله. وأطبـق الجيش الإسلامـي على جيش التتـار مـن جهات ثلاث.

قال كتبغا لجنوده: إننا ما زلنا نزحف وندمر ونحطم منذ خرجنا من الصين، وقد سقطت بغداد تحت سنابك خيلنا حلب وهذه مصر على مرمى البصر، لقد قتلنا الألوف ونهبنا القصور وخزائن المال وأقمنا من كتب العلم جسراً فوق نهر دجلة، فاندفعوا.

ولكن كل هذا الذي قاله كتبغا كان لحن المأساة قبل نزول الستار على حياته وعلى كل إنتصار آخر للتتار. لم تغنه كلماته الحزينة عن الموت ولم تغن جيشه الساحق عن الهزيمة.

وانتصر الإسلام، بفضل بطولة أبنائه المؤمنين شأنه دائماً وفي كل معركة.

(٢)

ولكن الأمر لم يكن ليقف عند هذا الحد. فقد كانت هناك لمحة ضوء خافتة تتحرك في اطار صغير لتتسع وتنتشر وتملأ الأفاق.

نعم في هذه السنوات بالذات بين هزيمة بغداد وانتصار عين جالوت كانت القبيلة الذهبية بقيادة بركة خان تدخل الإسلام في أعدادها الضخمة المؤلفة.

أولئك هم «مغول القفجاق» وهي البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين. وكانوا من نسيب جوجي أحد أولاد جنكير خان الأربعة وأكبر أبنائه، ولما مات جوجي ولي الأمر (باطوخان) الذي توفي ٦٥٤ وتولي بعده إبنه طرطق الذي توفي في نفس العام فتولى بعده بركة خان ثالث أبناء جوجى خان.

في نفس السنوات التي كانت معركة بغداد على وشك أن تندلع كان بركة خان يدعو قومه إلى الإسلام فيدخلون فيه زرافات ووحدانا، ولقد كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول ولم يكن على وفاق مع هولاكو وقد أعلن خصومته له نتيجة ما فعل ببلاد المسلمين وقد أرسل يعنفه على قتله الخليفة المستعصم وكان من نتيجة ذلك أن منع هولاكو مغول القفجاق نصيبهم من غنائم الحرب.

وقد كان بركة خان منذ مطالع شبابه متطلعاً إلى طريق يهديه إلى الله وكان عازفاً عن وثنية قومه ويذكر الجوزجاني الذي تحدث في تاريخه عن حياة بركة خان، أن بركة اعتنق الإسلام منذ طفولته وأنه لما شب وبلغ سن التعاليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند.

ولقد كان حريصاً دائماً على أن يلتقي بالتجار المسلمين القادمين من بخارى ويستمع إليهم ويناقشهم وقد تعددت خطواته مع هؤلاء الدعاة المسلمين الذين كانوا يعملون

بالتجارة وقد قبل منهم وإعتنق هذا الدين ودعا له القبيلة الذهبية.

وقد كانت المحاورات الدينية تشغل دائماً أكثر مجالسه، وقد تدافع قواده وجيشه إلى الإسلام تدافعاً كبيراً حتى ذكر المؤرخون أن جيشه كان مسلماً وأن كل فارس منهم كان يحمل سجادة للصلاة حتى إذا ما حان وقتها اشتغلوا بصلاتهم ولم يكن في جيشه من يتعاطى أي مسكر وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام.

(٣)

هكذا إتسعت طاقة الضوء في نفس الساعات الحالكة من الظلام، وعندما كانت تتساقط أعلام الإسلام في بغداد كانت قبيلة القفجاق تهوى قلوبها إلى الإسلام لتنصره بالقوى المقاتلة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد إتصل بركة خان بالمسلمين في مصر ووضع يده في يدهم ضد مغول هولاكو وجرت زيارات ومعاونات عسكرية وسياسية ضخمة. فقد واصل هولاكو التحالف مع ملك أرمينية والصليبيين ليتقوى بهم ضد المسلمين، وظلت إغاراتهم بعد (عين جالوت) تتوالى

وتجد رداً حاسماً لها، كان هذا الرد الحاسم من الظاهر بيبرس في مصر ومن بركة خان. فقد دخلت القبيلة الذهبية (المسلمة) في حلف مع المماليك ضد بني جلدتها من التتار وكان لذلك أثر كبير في ترجيح كفة المسلمين وكان أيضاً من العوامل الحاسمة في دخول عديد من زعماء المغول في الاسلام وفي مقاومة كل مؤامرة أريد بها خلع بركة خان.

وقد كان الظاهر بيبرس عندما علم بإسلام بركة خان قد كتب إليه وربط معه صلات الإخوة وأغراه بقتال هولاكو ومنذ ذلك الوقت أصبح بركة والظاهر بيبرس في كفة واحدة ضد عدوهما المشترك، فقد دخل بركة خان في حلف مع الظاهر بيبرس الذي فتح باب الود والصداقة مع مجموعة من جنود القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين كانوا قد وفدوا إلى سوريا الذين كانت مظاهر الحفاوة والتقدير قد فتحت أمامهم باب اعتناق الإسلام بعد أن أتيحت لهم فرصة التعرف إليه والإعجاب به. وكان نتيجة لهذه المعاملة الطيبة أن تقاطرت الوفود من رجال القبيلة الذهبية إلى مصر وسوريا وكانت هذه المجموعات كلها تدخل في الإسلام معجبة به.

كذلك قدمت وفود الملك بركة خان إلى بلاط السلطان وكانت تحمل كتاباً يقول فيه الملك بركة خان: « **فليعلم السلطان أني حاربت هولاكو الذي هو من دمي ولحمي لإعلاء كلمة الله ورسوله وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان**

وقد وجهت ابن شهاب الدين غازي معهم لأنه كان حاضراً الواقعة ليحكي للسلطان ما رآه يعد من عجائب القتال».

وقد أرسل السلطان الظاهر بيبرس الرد في سبعين ورقة وأمر الخطباء بأن تدعو للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر في مكة والمدينة والقدس والقاهرة.

وقد وصلت رسل بيبرس إلى بركة خان واحتفل بهم وتحدثوا كيف وجدوا بركة خان وله إمامه ومؤذنه وكيف أن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس.

(٤)

وكان بركة خان قد أعد جيشاً تعداده ثلاثون ألف جندي لمحاربة هولاكو وقد قصد هذا الجيش من القبجاق قاصداً إيران حيث اشتبك مع جيش هولاكو وانتصر عليه عام ٦٦١ ·وقد تأثر هولاكو لهذا الإنكسار وفكر في معاودة حربه لولا أنه توفي على أثر ذلك عام ٦٦٣ وقد حاول إبن هولاكو السير على سياسة أبيه في العداء للإسلام والتحالف مع الصليبيين غير أن عهده لم يطل، وخلعه أخوه تكودار الذي اعتنق الإسلام وتسمى (أحمد تكودار).

وكان قد اجتذبه إلى الإسلام جماعة من الدعاة الذين اجتذبوا بركة خان من قبل، أولئك المجاهدون المنبثون في

كل مكان في سبيل الدعوة إلى الله لا يهابون شيئاً ولا يرجون غير رضا الله. ولما توفي أحمد تكودار وخلفه أرغون بن أبغـا حاول العودة إلى سياسة العداء للإسلام غير أن الموقف كان قد تغير تماماً إذ كان الإسلام قد سيطر على مغول إيران ومغول جنوبي الروسيا فلما تولى غازان سلطاناً على ايلخانية إيران جعل الإسلام الديانة الرسمية لمغول إيران جميعاً وتبعوا في ذلك مغول جنوب الروسيا «وبذلك تمثل الإسلام من وصل إليه من المغول وجعلهم أنصاراً له» وكان ذلك عام ٦٨٦ هـ بعد وفاة السلطان بيبرس بسنوات سبع وبعد سقوط بغداد بثلاثين عاماً.

يقول توماس أرنولـد: لم يكـن أحـد يتـوقـع أن ينتصر الإسلام في هذه المعركة وتنهزم البوذية والنصرانية ويستأثر وحده بالتتار فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم، والفضل في ذلك لهؤلاء الدعاة المخلصين الذين حرصوا على إرشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم وأسلوب دعوتهم ورقة مـواعظهـم وتجردهـم مـن الأنـانيـة والكبرياء فقد أسلم سلطان كاشغر (تغلق تيمور خان) عام ٧٤٨ هـ على يد الشيخ جمال الدين الذي جاء من بخارى. الخ.

(٢١)

تصفية الغزوة الصليبية

لم يكن بد من أن يحق الله الحق ويبطل الباطل، وأن يصفي هذا الجسم الغريب في قلب العالم الإسلامي لأن وجوده ليس من طبيعة الأشياء: وإنما فتح الطريق لقيامه ضعف المسلمين عن إمتلاك ارادتهم والسيطرة على مقدراتهم، فإذا ما أزالوا عامل الضعف وعادوا إلى التجمع والوحدة، واتخذوا أسلوب القرآن في العمل والعيش والحياة، ردت إليهم قوتهم وإرادتهم فامتلكوا السلاح الذي برهب العدو، ويديل من الظلم والغزو والتسلط. وكذلك كان الأمر في كل أزمة كبرى من أزمات المسلمين، ينتزعهم الضعف والتخلف من مكان القيادة والحركة واليقظة فيغفلوا عما في أيديهم من مقدرات، وما لأوطانهم من حدود وموانى وينسحبوا من خطوط المرابطة في مواجهة العدو، هناك يندفع العدو يغزوهم ويسيطر على مقدراتهم فإذا عادوا إلى إمتلاك اراداتهم نزع عنهم الضعف والتخلف. ولقد كان المسلمون قادرين على معرفة هذا السنن من قوانين

الحضارات والأمم قبل أن يقعوا في الأزمات لو أنهم التمسوه في القرآن الكريم فقد كان من أعظم ما قدمه الكتاب الكريم للبشرية هذه القوانين التي تحكم المجتمعات والأمم والكون كله، أهداها الخالق العظيم الكريم للبشرية جميعاً وكشف عنها للمسلمين لم يلبثوا إلا قليلاً حتى انفصلوا عن قيمهم ومقدراتهم فضربهم العدو وأدال منهم وأذلهم، فكان عليهم أن يعودوا إلى قانون حياتهم ونظامها الحق وتشريعها الخالد فلما عادوا حقق الله تبارك وتعالى لهم النصر والظفر، وتصور الغزوة الصليبية واحدة من هذه الأزمات والغارات الكبرى التي انطلقت على عالم الإسلام قامت وصفيت في مائتي عام، ومرت في مراحل أربع:

المرحلة (الأولى): مرحلة التمكن وقد – بدأت باستيلاء القوات الزاحفة من الغرب على بيت المقدس عام ٤٩٨ هـ. بعد أن قتلت أكثر من سبعين ألفاً من المسلمين وامتدت طويلاً حتى أفزعت المسلمين ودفعتهم إلى العمل والتجمع والمقاومة حتى استطاع نور الدين محمود أن يضرب هذا الجدار الضخم بقوة في «حارم» بعد أن أقام ذلك البناء الفكري الضخم الذي أطلق عليه مدرسة التسلح الخلقي إستمداداً من القرآن والسنة لبناء الأجيال على مفهوم الإسلام الأصيل وتشكيل النفس الإسلامية العربية من داخل فريضة الجهاد والإستشهاد وكان ذلك منطلقاً إلى مرحلة المقاومة الضخمة والإنتصار الساحق.

المرحلة (الثانية): تتمثل في ذلك العمل المكثف الذي بدأه نور الدين وأتمه صلاح الدين والذي حقق إنتصارات باهرة في طبرية وعكا ونابلس والرملة ويافا وبيروت وإنتهى بالإنتصار الباهر في حطين ثم دخول بيت المقدس وتسلمه بعد ثمانين عاماً من بدء الغزوة الصهيونية وكان ذلك عام ٥٨٣ هـ.

المرحلة (الثالثة): وهي مرحلة ما بعد صلاح الدين وقد تراوح فيها بيت المقدس بين النصر والهزيمة ثم إستعادة المسلمين له مرة أخرى بقيادة الخوارزمية الأبطال، وما دامت حوله معارك الحملات الصليبية التي سبقت إلى سواحل مصر والشام وهزيمتها وفي مقدمتها هزيمة لويس التاسع في المنصورة وهزيمة التتار في عين جالوت.

المرحلة (الرابعة): وهي مرحلة تصفية الكيان الذي أقام المملكة الصليبية وهو الدور الذي قام عليه قادة المماليك: وفي مقدمتهم الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل وهي مرحلة دقيقة حاسمة كان المجاهدون يضربون فيها القوى الثلاث المتشابكة «الباطنية والتتار والصليبيين» حتى انتهى الوجود الصليبي في الشرق وتحررت منه بلاد المسلمين في هذا الجزء من عالم الإسلام.

وتعد هذه الرحلة من أبرز المراحل التاريخية التي ساد فيها النصر الإسلامي الكاسح وتجلت فيها قدرة القوة الإسلامية على الأدالة المستأصلة للعدو والهزيمة الدائمة للقوى الدخيلة

التي توالى انهيارها حتى اضطرت آخر الأمر أن تلملم بقاياها وتعود مقهورة مهزومة مدمرة دون أن تكسب شيئاً إلا الخزي والذل وحكم التاريخ المرير.

هذا الدور كان منوطاً بدولة المماليك وكان الظاهر بيبرس هو أبرز الذين قاموا على هذا العمل حيث كان يضرب في الجبهات الثلاث: جبهة الباطنية وجبهة التتار وجبهة الصليبيين.

فبعد أن انتهى الظاهر بيبرس من الإنتصار على التتار في عين جالوت وجه جهوده كلها للقضاء على النفوذ الصليبي فهدم عليهم يافا وأنطاكية ووصل بفتوحاته إلى آسيا الصغرى.

يقول الدكتور سعد عبدالفتاح عاشور: لم يتقاعس سلاطين المماليك عن النهوض بالمسئولية الضخمة في مواصلة الجهاد ولم يكتفوا بطرد آخر بقايا الصليبية من الشام وإنما استأنفوا الحرب ضد الصليبيين في بقية قواعدهم بالشرق الأدنى: في أرمينيا الصغرى وفي قبرص وفي رودس، وطوال تلك الحروب العنيفة التي شنها المماليك على الصليبيين دون هوادة أو رحمة أظهر فرسان المماليك وسلاطينهم من ألوان البطولة له وضروب الشجاعة ما أصبح مضرب الأمثال في التاريخ».

ويذكر المؤرخون أن بيبرس لم تمر به سنة من السنوات العشر بعد عين جالوت (٦٦٠ - ٦٧٠ هـ) دون أن يوجه حملة أو يقوم بغارة على الممتلكات الصليبية بالشام. وكان

هجومه على عكا من أبرز المواقع في هذا الدور، ثم كان هجومه على الناصرة، والقدس، وقيسارية، وبيسان، وعكا، وحيفا وأرسوف.

ولم يتوقف إلا قليلا حتى عاود الغارات على الإمارات الصليبية يحرقها ويدمرها، ويديل منها.

وكان يعمل بنفسه في هذه المعارك، يقول الدكتور سعد عاشور «لما بدأ بيبرس يهاجم قيسارية أمسك المطرقة ووقف بنفسه في وسط جنده يعمل في هدم سوريا، وكان يخرج بنفسه وفي يده ترسة للقتال، فيعود آخر النهار وفي ترسه عدة سهام. وعمل بنفسه في جر الأخشاب مع البقر، وفي كل عام كان يبدأ هجومه على قلعة من القلاع، صفد، أرمينيا، عكا، وذلك في خطة عامة للقضاء عليها واحدة بعد الأخرى.

وكان استيلائه على أنطاكية «٦٦٨» هجرية في تقدير المؤرخين أعظم فتح حققه المسلمون منذ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس.

وكان ضياع انطاكية بالنسبة للصليبيين أكثر من كارثة فقد كانت أولى الإمارات التي أسسها الصليبيون في الشرق في الحملة الصليبية الأولى، لذلك جاء سقوطها في يد بيبرس إيذاناً بانهيار البناء الصليبي في الشام وإعلاناً لحركة الجهاد الكبرى التي شنها سلاطين المماليك ضد الصليبيين وهي الحركة التي لم تنته إلا عام ٦٩ بطرد آخر البقايا الصليبية في الشام.

وبعد بيبرس جاء قلاوون الذي ضرب الصليبيين ضربة قاضية في عكا آخر حصونهم وقلاعهم، ثم جاء إبنه الأشرف خليل الذي أصلى الصليبيين حروباً حامية وطردهم نهائياً من البلاد.

وإذا كانت القوة البدوية التي يمثلها المماليك قد قضت على المملكة اللاتينية وصفت الوجود الصليبي وانهت مملكة بيت المقدس فانها عملت أيضاً على تصفية قلاع الباطنية في الشام وأدالت ذلك النفوذ المخيف الذي كان يتمثل في هذه القوة المبطلة، التي كشف إنهيارها السريع عن أنها هشة أشبه بورق الكرتون فانها بالرغم من رهبتها الظاهرة سرعان ما سقطت عند الضربة الأولى.

كذلك صفت القوة المملوكية الوجود المغولي التتري التي كان قد بدأ ينصهر في بوتقة الإسلام.

(٢٢)

الوقوف
في وجه العدو

يجمع تاريخ الإسلام بين بناة الإسلام وبين المدافعين عنه في وجه الغزو، كما يجمع بين بناة العلوم وبين المجددين والمصلحين الذين صححوا مفاهيمه على مدى القرون، فليس تاريخ الإسلام الباهر المضيء هو تاريخ القرن الأول وحده، ولكن على طول مدى التاريخ تبرز صور البطولة والكفاية، ويبرز الأبطال والنوابغ، الذين يلتمسون جوهر الإسلام ومفاهيمه الأصيلة من منابعه الأولى، والذين يتخذون من بطل الأبطال محمد ﷺ قدوة ومثلا أعلى: ويجدون في وقائع حياته تطبيقاً فعلياً لمنهج القرآن ودعوة الإسلام فقد كان ﷺ: خلقه القرآن يغضب بغضبه ويرضى برضاه وما تزال صفحة التاريخ الإسلامي مفتوحة: وما تزال نماذج المجاهدين والأبطال في كل جيل تبرز من أعماق هذه الأمة تتمثل الصدر الأول، وتجد منه زادها في القدرة على مقاومة الغزاة، ورد عادية الخصوم الزاحفين.

ولقد قدم التاريخ لنا صورة باهرة في مواجهة أزمة من أكبر أزمات الإسلام والعرب هي الغزو الصليبي والتتري الذي غشي أرضنا في القرنين السادس والسابع الهجري، والذي عاشت أمتنا تجالده يوماً بعد يوم حتى انتصرت عليه وأزاحته.

تلك صورة المواجهة والمقاومة في أقوى ملامحها، وقد حمل لواءها: نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس وكثيرون.

لقد ظلت خطوط المواجهة بين أرض الروم وأرض العرب تشتعل بالمعارك على مدى تاريخ طويل لم يتوقف. ينتصر فيها المسلمون يوماً وينهزمون يوماً ولكن المواجهة ظلت مستمرة، لم يتوقف المسلمون عن شحن الثغور، وعن الإستعداد الدائم للهجوم والدفاع، مرابطين على أطراف العالم العربي الإسلامي، واستطاع المسلمون إجبار الرومان على دفع الجزية، ورد المعتصم على معاونة الروم للمتآمرين على العرب بغزو عمورية وفتحها وحراقها، ثم برزت دول قوية حملت لواء الدفاع عن هذه الخطوط في مقدمتها دولة الحمدانيين فقد أمضى (سيف الدولة) جل حياته في حروب مستمرة مع البيزنطيين، ووقف الفاطميون في وجه الروم بعد الحمدانيين، وجاء السلاجقة فطردوا الروم من شمال سوريا ومن قسم كبير من الأناضول.

هناك أحس الغرب أن حصنه الحصين في مواجهة عالم

الإسلام قد انهار فبدأ حملة ضخمة ترفع لواء الغزو هي ما أطلق عليه «الحروب الصليبية».

ومنذ أول يوم بدأت المواجهة والمقاومة، وخطا المجاهدون خطوات، وعملت القوى المناضلة وقدمت شهداءها حتى جاء نور الدين فأعد مخططاً كاملا للجهاد، بناه على الأعداد العسكري والأعداد الفكري والروحي، كما استطاع أن يوحد دمشق وحارم وبانياس واتجه إلى إستكمال الوحدة بمصر، ثم كانت معاركه للأدالة من المملكة الصليبية فقاد المعارك بنفسه، وكان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، صلب الضرب، يتقدم أصحابه، ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير، وكان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة. حتى قيل أنه لم ير على ظهر فرس أشجع ولا أثبت منه، أحب المرابطة للعدو، وقال أن حب الجهاد يسليني عن طيب دمشق ورقة هوائها وجمال أزهارها، وكان إذا التقى الجمعان في موقعة إنفرد وسجد لربه عز وجل، ومرغ وجهه وتضرع وقال: يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فأنصر أولياءك على أعدائك، اللهم أنصر دينك ولا تنصر «محموداً» ومن هو محمود حتى ينتصر.

وروى له حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه أن يبتسم لتتم المسلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب لذلك قال: أني لأستحي من الله أن يراني مبتسماً، والمسلمون

محاصرون من الفزع، وكان يصلي كثيراً بالليل، ينزل المسجد بغلس ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح، يلبس بالليل مسحاً ويقوم يصلي فيه ردحاً من الليل مجدداً سيرة عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز، عاش على سهمه من الغنيمة، ورفض كل مال أرسل إليه، وقال أن رقبتي دقيقة لا أطيق حمل المال والمخاصمة عليه بين يدي الله. وكانت أخباره في البر والإحسان والعدل صورة من صور الرعيل الأول.

يحب العلماء ويجمعهم عليه ويبحث معهم، حتى صارت الشام مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، هاجم المملكة الصليبية وقضى حياته كلها في حرب دائمة مع الصليبيين وكانت كبرى مواقعه معركة (أنب) في صفر عام ٥٤٤ إذ حشد فيها الصليبيون حشداً كبيراً فذهب إليهم نور الدين في ستة آلاف فارس وقاتلهم قتال الأبطال، وصرع أميرهم البرنس (أبو يبمونت). الذي كان مشهوراً بشدة البأس وقوة الحيلة وبعد السطوة وبغضه الشديد للمسلمين.

يقول إبن الأثير: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من الإسلام إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه فقصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز عليه ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها وأحسان يوليه وإنعام يسديه.

* * *

ثم جاء صلاح الدين فحقق ما وطده له نور الدين في بناء مدرسة المقاومة والمواجهة، وقد اتيح له أن يحقق انتصارات أكبر، وكانت تصرفاته وفق مفهوم الإسلام وعلى هدى من أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان رأي صلاح الدين أنه مصدر القوى في مصر وأن طليعة الجهاد تبدأ من القاهرة، فأنشأ سوراً ضخماً حولها وأقام قلعة منيعة ونظم جيشاً عرمرماً، وحصن الإسكندرية. ومضى في طلعة موفقة حقق بها سلطانه على جميع الإمارات، وأتيح له أن يحقق نصراً مؤزراً في معركة حطين ففتح بيت المقدس واستعاده من الصليبيين.

تحدى الصليبيين في أوج مجدهم بعد أن بلغوا من القوة واتساع النفوذ درجة هددت العراق والشام ومصر والحجاز، وواجه أكابر ملوك الغرب، وهو في تقدير المؤرخين قمة هذه المعارك، فقد جاء في أبانه، وعلى قدر حجم المعركة نفسها.

قال إبن شداد: لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءاً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثه عليه، لقد هجر في محبة الجهاد أهله وأولاده ووطنه وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب منها الرياح يمنة ويسرة.

يقول إبن شداد: «أنه حدث في أثناء حصار الصليبيين

لعكا أن وصلت في البحر في ليلة واحدة أكثر من سبعين مركباً صليبياً، وهو يعدهم مركباً بعد آخر من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ومع ذلك فانه كان لا يزداد إلا قوة نفس. وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط. وقد حدث في بعض المواقع في معارك عكا أن هزم المسلمون وسقط علمهم على الأرض، ومع ذلك ظل صلاح الدين ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو».

ولما دخل صلاح الدين بيت المقدس ظافراً منتصراً لم يسفك دماً ولم تنهب جيوشه بيتاً، أمن الجميع على أموالهم وأمتعتهم قالوا له: أما وقد كتب لك الظفر على أعدائك فلم لم تنتقم منهم وأنت تعلم ما فعلوا من الفظائع، قال صلاح الدين: هذا يمنعني منه ديني وضميري. قالوا: هل دينك يمنعك من الإنتقام من قوم بدءوك بالعدوان، وساموا قومك الخسف والعذاب، قال نعم: إن ديننا يمنعنا من أن نجاري خصومنا في عنادهم؛ وأن نكون أوفياء لعهودنا وأن نصفح عمن أساء، ولما قسمت غنائم الحرب تنازل صلاح الدين عن نصيبه للفقراء وأعتق أسراه.

وعندما بدأ الفرنجة يرحلون ترك للصليبيين المدينة حتى لا يجرح شعورهم ووقف مناديه من مطلع الشمس حتى غروبها ينادي: هل من فقير فنأويه، أو عاجز عن دفع الفدية

فنعطيه، وعفا عن سبعة الآف من العجزة عن الضريبة ودفع بعضها من جيبه الخاص، ورفض أن يصادر اموال بطريرك بيت المقدس عند خروجه منها وسمح للفرنج المدنيين إذا شاءوا أن يعيشوا، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم وحمل الكهنة ذخائرهم الذهبية وخرجوا بها ولم يتعرض لهم أحد بأذى، بل قدمت الدواب لكثير من الذين لا يجدون ما يركبونه وقد شهد المؤرخون وربما لم يجتمعوا على حق كما اجتمعوا على نصفة صلاح الدين، شهدوا بكرم أخلاقه وسماحته وبأنه عامل نساء الصليبيين معاملة حميدة وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات ومعهن أموالهن وإتباعهن وحشمهن، وعامل الأميرات الأسيرات بكل تكريم وسمح لهن باطلاق سراحهن.

وبدأ الفرق واضحاً بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على القدس ١١٨٨ وبين ما فعله الصليبيون عندما سقطت في أيديهم ١٠٩٩ وقتلوا سبعين ألفاً.

ولما فقد ريكاردوس قلب الأسد ملك إنجلترا جواده، أرسل صلاح الدين جوادين عوضاً عنه، ولما مرض ووقذته الحمى، أرسل إليه هدية من الفاكهة والثلج، ولما تجمع الصليبيون مرة أخرى بعد انتصار صلاح الدين في بيت المقدس: وجاءت حملة صليبية أخرى إشترك فيها ثلاثة من أعظم ملوك أوربا: فردريك باربـاروس إمبراطور ألمانيا؛

وفيليب أوغسطوس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد وتجمعوا أمام عكا (١٥ رجب ٥٨٥ هـ) وقف صلاح الدين في قادة جيشه يقول:

« إعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، قد نزل في بلدنا، وقد وطىء أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بد من الإهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، وليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو وأن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاء مدد عظيم والرأي عندي مناجزتهم، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك ».

وقال للجنود: « إن النبي لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة على الموت في لقاء العدو، ونحن أول من يتأسى به والمصلحة الإجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون إن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن وليتم بأنفسكم والعياذ بالله طوى البلاد طي السجل للكتاب. وكان ذلك في ذمتكم، فانكم أنتم الذي تصديتم لهذا فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم ».

في ظل معركة المقاومة والمواجهة بدأت المرابطة في الثغور، وانتعشت الفروسية القديمة، وكان أول ما يتعلمه المسلمون

المرانة على ركوب الخيل واللعب بالسيف والرمح وكل أدوات القتال ورواية شعر الحماسة والمروءة والأدب ومكارم الأخلاق.

وفي ظل المعركة ظهر العز بن عبدالسلام ومحي الدين النووي وإبن دقيق العيد وإبن تيمية فكانوا كالمنارات السامقة التي تهدي إلى العمل والمقاومة بدعوتها إلى تحرير الإسلام من البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحرير البلاد الإسلامية من الظلم والعدوان فالعز يجاهد الغزاة ويشعل الحماسة في الصدور ويدفع الناس إلى الجهاد، ومحي الدين النووي بعد العز يتنقل في العواصم الإسلامية يحرص على قتال العدو وإبن دقيق العيد يحرض على قتال العدو وإبن دقيق العيد يحرض على الأمر بالمعروف.

يقول العز: ينبغي لكل عالم إذا ذل الحق وأهمل الصواب أن يبذل جهده في نصرهما: في رضا الله كفاية عن رضا كل أحد، اللهم إبرم لهذه الأمة رشداً تعز به وتذل به عدوك.

ودعا العز الثراة إلى إخراج التحف والمطارف لينفقوا منها على إعداد الجيش فخرجت الأكداس من الحلي والثياب المزركشة وانتزعت مقابض الذهب والفضة من السيوف والأواني وضربت فكفت وأغنت ولم تمس أرزاق الناس.

كما مضى المصلحون إلى مقاومة خصوم العرب والإسلام من الباطنية والحشاشين، بسلاح دحض الشبهات، والزهد النقي، والسنة الصحيحة، وكان أكبر عمل لمقاومة خصوم

الفكر الإسلامي والثقافة العربية هي مدارس الحديث، والتماس منابع الإسلام وأصوله وجوهره، والمصالحة بين الفرق الإسلامية وصهرها في فكر إسلامي موحد أساسه مفهوم التوحيد إستمداداً من القرآن، ودعا الغزالي وإبن تيمية إلى الإتصال بالحقيقة الأصلية ونبذ المفاهيم المغلوطة التي نمتها الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية القديمة.

ومن عجب أنه في خلال الحروب الصليبية ومعارك المقاومة للفرنجة والتتار ظهر عدد كبير من أعلام الفكر الإسلامي في مختلف المجالات وفي الفلك والرياضيات على وجه خاص وزخرت مصر والشام بالعلماء والإنتاج الضخم في جميع العلوم الإسلامية.

وحث العلماء على الجهاد ومقاطعة السلاطين المتعاونين مع العدو وتحريم بيع السلاح للصليبيين.

ثم جاء الظاهر بيبرس فقطع مراحل أخرى في مواجهة الصليبيين والتتار واستطاع تحطيم قوة الأمير (بوهموند) صاحب طرابلس بانتزاع أنطاكية بعد أن وجه عليها سبع حملات، ودهم فرسان القديس يوحنا واحتل حصن الأكراد أمنع معاقلهم وأخضع الإسماعيلية وسقطت حصونهم الواحد بعد الآخر، وقد علل المؤرخون نجاحه بسرعته وجرأته التي لا مثيل لها وبراعته في التنظيم فقد كان ينتقل بفرسانه بسرعة، ويباغت المدينة في الوقت الذي يعتقد أهله فيها أنه لا يزال في القاهرة، وأعظم مجازفاته ما قام به في صحبة رجاله الأربعين

في مهاجمة حصن الأكراد، فقد تنكر في ثياب شيخ عجوز واشترك في السفارة إلى بويموند صاحب طرابلس ليختبر بنفسه قدرة المدينة على المقاومة.

وقد وصف توينبي كفاح قطز وبيبرس وقلاوون فقال: «كان المماليك هم الجنود الوحيدون في القرن الثالث عشر الذين كانوا أكثر من مجرد يد للمغول ولقد أغار المغول على غرب الفرات وشرق الهند ولكنهم لم يتمكنوا من أن يقيموا استحكامات دائمة خلف هذين النهرين، ثم أن الإسلام قهر المغول آخر الأمر في إيران والعراق، بعد أن هزم الإسلام الأديان الأخرى في المنافسة على هداية المغول».

وإذا كان صلاح الدين يعد الشخصية الكبرى التي سجل التاريخ بطولتها في المعركة الصليبية: فإن أحداً لم يستطع أن يواصل سياسته بالقوة نفسها حتى جاء الظاهر بيبرس، فكان محارباً في مجالات ثلاث: الصليبيين والتتار والحشاشين فأدال منهم جميعاً وحطم حصونهم ودمرها عليهم.

هذه هي صورة سريعة لمعارك المواجهة والمقاومة كما رسمها تاريخ الإسلام والعرب القريب وهي علامة صادقة على حقيقة لا سبيل إلى تجاوزها هي: أن العرب والمسلمين لا يقبلون الضيم ولا يستكينون للغزو وأنهم قادرون على المقاومة والمواجهة والأدالة من خصومهم مهما تعددت جبهاتهم، وإنهم اليوم يستلهمون من تاريخهم ومن قيمهم وعقائدهم قوة كبرى تعينهم على المواجهة والنصر بإذن الله.

(٢٣)

صلاح الدين الأيوبي

« صورة من كتابات الغربيين »

يقول « هاملتون جب » لقد كان تاريخ الشرق الأدنى حافلا بالملوك الفاتحين، فهل كان صلاح الدين واحداً من هؤلاء، أو أن في سيرته عناصر أخلاقية معنوية متميزة تخلع على انتصاراته الأولى وجهاده اللاحق ضد الحملة الصليبية الثالثة صفة متفردة؟ ليس مما يكفي الإجابة بالإيجاب أن يقال أن صلاح الدين حارب الصليبيين في سبيل الإسلام بل ربما لم يكن لهذه الحقيقة أية صلة بالموضوع، هل كان صلاح الدين واحداً من أولئك القادة المحظوظين ممن لا يقف في طريقهم حاجز، ولا يحفزهم إلا الطموح الشخصي وشهوة الفتح ولا يفعلون شيئاً سوى استغلال الشعارات والعواطف الدينية في سبيل تحقيق أهدافهم.

إن شهرة صلاح الدين تقوم على مآثره الحربية التي تجلت في معركة حطين سنة ١١٨٧ م وفي استيلائه على القدس بعد

ذلك، وعليه فإن المؤرخين من مسلمين ونصارى يعتبرونه في المقام الأول «قائداً».

ثم أن بين الظروف التي قام فيها كل من صلاح الدين ونور الدين بمهمته فروقاً اساسية، فقد كان نور الدين يعمل من «داخل» البناء السياسي في عصره، ولتصوير ذلك البناء نقول: تفككت سلطة السلاجقة عند ختام القرن الحادي عشر «القرن الخامس الهجري» ومنذ ذلك الحين تقسم آسيا الغربية عدد من الأسر المحلية أنشأها جميعاً قادة من الأتراك أو زعماء من التركمان.

أما المظهر الثاني فهو تكون القوى العسكرية، وكان نور الدين إبن عسكري تركي ولذا كان يدرك معنى هذا النظام، بل أن جهوده في سبيل ما يمكن تسميته «إعادة التسليح الخلقي» وذلك بمنح الزعماء والمصلحين الدينيين كل تأييد لم تكن الأولى من نوعها، والحق أن نور الدين بنى سياسته على أساس ما كان قد تحقق في دولة السلاجقة وحدا هو على مثاله، وأقصى ما يمكن أن ننسبه له هو أنه كان أكثر نزاهة وأعمق من بعض أسلافه في تبني تلك السياسة نفسها، لقد أظهر «نور الدين» بصيرة ومقدرة تفوقان المستوى المعتاد في ذلك الزمن ولا ريب أنه لو طال به الزمن وزال الجفاء الموقت بينه وبين صلاح الدين لجاء الهجوم المضاد على الصليبيين أسرع عنفاً مما كان عليه في الواقع أما «صلاح الدين» فقد شعر عندما رأى الموقف الخطر الذي تعانيه مصر أن مسئوليته

الأولى هي تكوين القوات المحلية كي يتمكن من حماية مصر من خطر التواطؤ بين العناصر المؤيدة للفاطميين من داخل مصر وضد هجمات الفرنج من الخارج. ونتج أول ما نتج عن موت نور الدين أن تجزأت القوات العسكرية المركزية فكان لا بد من إعادة ما حققه نور الدين من البداية على نحو مباين، وقد أخذ صلاح الدين بذلك فعمل دمج الكيان الزنكي كله في دولة عسكرية قوية من الخارج، وقد كان هذا يتطلب بناء دولة شاسعة تمتد من كردستان وديار بكر إلى النوبة واليمن.

ولقد كانت منزلة صلاح الدين ومعالمه الشخصية والروح التي أخذ بها مهمته والأساليب التي استخدمها، تختلف اختلافاً كلياً عما لدى مؤسسي الدولة العسكرية الكبرى وعما أبرزوه من منزلة ومناقب وأساليب.

ولقد كان صلاح الدين يجيد فن الحركات الحربية وبهذه الحركات الحربية البارعة ربح معركة «حطين» وأروع أعماله العسكرية هي أستيلاؤه عام ١١٨٣ على قلعة «أمد»: ديار بكر، التي أشتهرت بمناعتها بعد حصار دام ثلاثة أسابيع.

ولم يكن صلاح الدين إدارياً بارعاً ولعله لم يبد إلا رغبة ضئيلة في التفاصيل الإدارية سوى أن تكون أداة لدرء المفاسد، لم يكن صلاح الدين رجل حرب أو إدارة بحكم ميوله وتدريبه، ولكنه هو نفسه الذي جمع حوله جميع العناصر والقوى التي كانت تستهدف توحيد الإسلام في وجه الغزاة

ووجهها وألهمها، ولم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمه الذاتيين في غالب الأحيان، وإنما حقق ما حققه من ذلك بانكاره للذات وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه إنتماءاً إسمياً، على حد سواء، ولم يكن صلاح الدين نفسه ساذجاً، ولكنه مع هذا، كان غاية في البساطة فذاً في النزاهة ولقد حير أعداءه، من الأدنين والأبعدين، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم، وأن يقوم بالألاعيب والمناورات السياسية مثلما يفعلون، وكان هو نفسه طيب السريرة ولذلك لم يكن يتوقع ابداً ان يفهم مكر الآخرين، وقلما فهمه وذلك ضعف استغله فيه أحياناً أقرباؤه، إلا أنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من أخلاصه لمثله العليا اخلاصاً لم يكن لأحد من الناس أو لشيء من الأشياء أن يزعزعه من مكانه.

وأرى أنه لم يحاول أحد من الدارسين حتى اليوم ان يتفهم الطبيعة الحقيقية لتلك المثل العليا، فالمهمة الملحة التي وجد نفسه مدعواً للاضطلاع بها هي طرد الفرنجة من فلسطين وسورية، وهذه هي الناحية التي أبرزها معاصروه وافترضت الأجيال التالية أنها كانت كل غرضه. ومن الطبيعي حين يقوم أحد الناس بأعمال عظيمة أن نظنها كل ما استهدفه، والواقع إن مآثر الإنسان لا تكون في الغالب إلا جزءاً مما عقد العزم على تحقيقه ولعله لم يحققه إلا لأنه وضع نصب عينيه هدفاً أبعد مما حققه بكثير.

وهذا ينطبق في رأيي، إلى حد بعيد، على صلاح الدين، فإن أهدافه الواسعة لم تكن إلا أهداف رجل لا حدود لمطامحه او لبساطته.

وكان صلاح الدين من أحد الوجوه يتصف بكلا الأمرين، ولكن طموحه نشأ من بساطة خلقه، وسداد رؤاه فقد تجلى لعينيه أن ضعف المجتمع الإسلامي السياسي الذي سمح بتأسيس المملكة الصليبية واستمرار بقائها إنما نجم عن إنحطاط في الخلق السياسي، وعلى هذا الإنحطاط ثار صلاح الدين ولم يكن أمامه غير طريقة واحدة للقضاء عليه، وهي أن يعيد الكيان الإسلامي في ظل دولة واحدة موحدة، وان يبعث ذلك الكيان مجدداً، لا تحت حكمه هو، وإنما بأن يعود إلى حكم الشريعة تحت إشراف الخليفة العباسي.

وقد أورد في بعض رسائله هذا المعنى حيث يقول: «هذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله والطاعة لخليفة الله هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه لا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم ولا ينوي إلا هذه النية».

ويبدو ذلك في رسالته إلى فلج أرسلان سلطان الأناضول عام ١١٧٨ م التي يقول فيها.. «أنه لن يسمح بتداول الحروب بين أمراء المسلمين بدلاً من إتحادهم معاً في الجهاد».

وكانت مثاليته في الوقت نفسه، تخضع لنزعة عملية قوية،

فالوضوح الذي كان يزن به كل خطوة يخطوها نحو غايته، وكل حالة لدى ظهورها تقفنا على سر توسع المستعمر في سلطانه، ولما كان يعرف أن المشكلة التي يواجهها لم تكن سياسية فحسب، بل هي إلى حد أكبر أخلاقية نفسية، وأنه إذا عالجها على المستوى السياسي والعسكري فسيعجز عن حلها، أدرك أنه إن شاء أن يصل إلى نتائج فعالة فعليه أن يدعم الولاء السياسي بحوافز وروادع أخلاقية ونفسية، وكانت صعوبة المهمة حتى اليأس الظاهر عنها في تلك الظروف أمراً واضحاً، ولكن صلاح الدين وجد طرقاً لمواجهتها مما يبعث الحيرة والدهشة لدى أصدقائه ومستشاريه.

وكان مبدؤه الأول في سياسته نحو الأمراء، سواء أكانوا أصدقاء أو أعداء هو صدقه فيما يقول، وتمسكه المطلق به، حتى مع الصليبيين كانت الهدنة هدنة، وليس في سجله مثل على أنه نقض إتفاقاً معهم، ولكنه لم يكن يغفر لمن ينقض عهده، وذلك ما كان على أرناط والدواية أن يفهموه... أما نحو منافسيه المسلمين فكان يقرن إخلاصه بكرمه فبعد إتفاقه مع الملك الصالح سنة ١١٧٦ ترك حلب إلى أن توفي الملك الصالح مع أن الخليفة كان قد أعطاه تقليداً بولايتها. وحاصر «آمد» لأنه كان قد وعد بها الأمير الارتقي صاحب حصن «كيف» جزاء على مخالفته له، وبعد أن استولى عليها ترك لحليفه كنوزها الهائلة على حالها - وذلك وفاء بوعد لم يسبق له مثيل أثار الدهشة والعجب.

ومن أجل أن يصل إلى غايته كان عليه أن يقوى أعماله والقدرة التي يخلقها بإيجاد تيار خلقي ونفسي يسند موقفه، ويكون قوياً بحيث يتعذر مقاومته، فكان لذلك في حاجة إلى حلفاء وبخاصة طبقة «فقهاء المدارس» قادة الرأي العام يومئذ، وذلك من أعسر الأمور لأن هؤلاء الفقهاء كانوا يمثلون على وجه التحديد الفئات التي إتخذها نور الدين لتأييده، وقد بدأوا في جانب المعارضة له، إلا أنه إستطاع بصدقه وإخلاصه أن يكسب آخر الأمر إحترامهم له وإعجابهم به، واحتذى مثال نور الدين في تقريب المتصوفة ورعايته لهم.

على أن أقوى الأمور إجتذاباً للسكان بوجه عام فيما نرجحه إنما هو إصراره على إزالة الرسوم والأعباء الجائرة في جميع البلاد الخاضعة لحكمه وسيادته.

والحق أن الفضل في إتساع دولة صلاح الدين في آسيا بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٦ فيما عدا الاستيلاء على قلعة آمد، إنما يعود في الأكثر إلى تأثير هذه العوامل لا إلى الأعمال الحربية أمام الموصل وطلب أقرب إلى المظاهرات منها إلى الحصار وإذا كان صغار أمراء الجزيرة واثقين من خلق الرجل فإنهم من تلقاء أنفسهم وضعوا أنفسهم تحت حمايته.

أما إلى أي حد أسهمت شهرة صلاح الدين بالسخاء والإخلاص المطلق فكلمته في استعادة فلسطين وسورية

الداخلية، خلال السنة ونصف السنة اللتين اعقبتا وقعة «حطين» فذلك أمر متعالم مشهور.

ولقد قدر لمتانة البناء الذي أقامه صلاح الدين أن يتعرض للإمتحان القاسي، حين جاءت الحملة الصليبية الثالثة، فقد تكشفت هذه الحملة عن نزاع من نوع لم يسبق له أبداً أن توقعه ولا أعد له العدة قبل وقوعه: وبدلاً من أن يتابع المضي في تحقيق حلمه النبيل، وإن كان مثالياً في إعادة حكم الشريعة إلى العالم الإسلامي، انهمك في صراع مرير في واقعه، وكان قد سعى إلى تحقيق حلمه بإنكار الذات والعدل والإخلاص فإنه إستطاع بهذه الأسس الأخلاقية وحدها أن يضطلع بالمهمة الملقاة على عاتقه، وهي مهمة لم يسبق لها مثيل، فخلال قرون لم يسبق لأمير مسلم أن واجه مشكلة إبقاء جيشه في الميدان لمدة ثلاث سنوات وهو يحارب عدواً نشيطاً مغامراً.

ولم يسبق لصلاح الدين أن اكترث بالمال فقد أنفق مال مصر في فتح الشام وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة وأنفق مال الجميع في فتح السواحل، ثم وجد نفسه بلا موارد تكفي للحصول على الأسلحة والمؤن والتعاليق والعدد وعطاء الأجناد، وعلاوة على هذا فإن الخنادق الحصينة التي شقها المحاصرون الصليبيون قد بعثت الإضطراب في حركات العساكر هذا بالإضافة إلى الأذى الذي لقيه صلاح الدين من أقربائه، هذه هي العوامل التي ضيعت على صلاح الدين فرصة

الإنتصار التام في صراعه مع « ريكاردوس »، وكل هذا يفسر قول صلاح الدين في عبارة متواضعة لبهاء الدين (فانني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر) لقد كان قوياً إلى حد يتغلب بقوته على نفور الأفراد ومقاومتهم، تلك هي الطبيعية الحقيقية لمآثره فلقد انتشل الإسلام طوال فترة حاسمة رغم قصرها - من وهدة الانحطاط الأخلاقي السياسي حين نادي بمثل اخلاقي أعلى. ولما أن طبق هذا المثل على حياته الخاصة، وأعماله خلق حوله حافزاً للاتحاد كان كافياً بالرغم من عدم إكتماله لمواجهة سد مغيب ألقاه القدر في طريقه ».



(٢٤)

الظاهر بيبرس

(عن كتاب الدكتور سعد الدين عاشور)

إذا كان صلاح الدين الأيوبي يعد الشخصية الكبرى التي سجل التاريخ بطولتها في القرن السادس الهجري الثاني عشر للميلاد.. فإن أحداً من خلفاء صلاح الدين لم يستطع أن يواصل سياسته بالقوة نفسها.. على أن دولة المماليك ١٢٥٠ م التي ورثت الأيوبيين في حكم مصر والشام.. كانت ذات ظروف أحاطت بنشأتها، وأحداث خارجية صحبت مولدها وقد أحاطت بنشأة دولة المماليك ظروف قاسية، إذ ولدت تلك الدولة لتواجه مشكلتين كبيرتين كانتا في حقيقة الأمر أكبر خطرين هددا الوطن العربي في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ـ هما خطر الصليبيين وخطر المغول.

أما الصليبيون فكانوا قد ثبتوا أقدامهم في بلاد الشام وأطراف العراق منذ أواخر القرن السادس الهجري ١١ م ـ

ومن ثم أخذوا يمدون نشاطهم في مصر ووادي النيل جنوبا، وإذا كان الصليبيون قد إستطاعوا تحقيق إنتصارات عديدة في الدور الأول من أدوار المعركة الصليبية في الشرق الأدنى، فإن هذه الإنتصارات لم يكن مرجعها قوة الصليبيين أنفسهم بقدر ما كان مرجعها إلى إنحلال القوى الإسلامية وتفككها وعدم ترابطها، وهكذا حتى تمت الوحدة بين شمال العراق والشام ومصر على عهد نور الدين مما مكن صلاح الدين من إنزال ضربته الكبرى بالصليبيين في حطين سنة ١١٨٧ وعندئذ بدأ في وضوح أن ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين قد أخذ يتحول لصالح المسلمين رغم كل ما بذله الصليبيين ومن ورائهم الغرب الأوروبي من جهود.

وإذا كان صلاح الدين قد نجح في إسترداد كثير من مدن الصليبيين ومعاقلهم في الشام، فقد ظل الصليبيون رابضين في عكا وطرابلس وأنطاكية وغيرها. بل أنهم واصلوا جهودهم في النصف الأول من القرن الثالث عشر لغزو مصر ذاتها فاستولوا على دمياط ١٢١٩ وسنة ١٢٤٩ وأوغلوا في الدلتا إلى المنصورة.

في وسط هذا الصراع القائم بين أهل البلاد والمعتدين، ولدت دولة المماليك ليجد سلاطينها أنفسهم أمام مسئوليات ضخمة أهمها طرد البقايا الصليبية من الشام، ولم يتقاعس سلاطين المماليك عن النهوض بتلك المسئوليات الضخمة فواصلوا الجهاد ولم يكتفوا بطرد آخر بقايا الصليبية من

الشام، وإنما استأنفوا الحرب ضد الصليبيين في بقايا قواعدهم بالشرق الأدنى من أرمينيا بآسيا الصغرى وفي قبرص وفي رودس تلك الحروب العنيفة التي شنها المماليك على الصليبيين دون هوادة أو رحمة وفيها أظهر فرسان المماليك وسلاطينهم من ألوان البطولة وضروب الشجاعة ما أصبح مضرب الأمثال في التاريخ، على أن حرب الصليبيين لم تكن المجال الوحيد الذي أتيح للمماليك ليظهروا فيه بطولتهم وقوتهم، كما أن الخطر الصليبي لم يكن الخطر الفريد الذي ساعد على إكتساب هذا العصر طابع البطولة الذي ميزه بين عصور التاريخ العربي، ذلك أن قيام دولة المماليك جاء مصحوباً بخطر آخر جديد لاح في سماء الشرق الأدنى وهدد البلدان العربية الإسلامية، تهديداً فاق تهديد الصليبيين أنفسهم وأعني به خطر - المغول - إذ كان - هولاكو - قد نجح في إقامة دولة ثابتة القواعد للمغول في فارس ودان لها بالطاعة بقايا الخوارزمية وسلاطين سلاجقة الروم، فكان معنى هذا أن دور الخلافة العباسية لابد أنه آت عن قريب.

وهكذا وقعت البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في محنة كبرى بعد أن طوقها - المغول - من الشرق - والصليبيون - من الغرب الأمر الذي جعل المؤرخ المعاصر - إبن الأثير - يرسل زفرة حزينة عما شعر به معاصروه من ألم وأسى فيقول أن المسلمين منذ أن بعث نبيهم - عليه الصلاة والسلام - لم يروا بمثل تلك المحنة، وكان أن غزا المغول العراق ١٢٥٧ م

وإستولوا على بغداد في أوائل العام التالي ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م، فاشعلوا النار في دورها وقتلوا الآلاف من أهلها وعلى رأسهم الخليفة العباسي نفسه وفي ذلك الوقت الذي اهتز العالم الإسلامي أجمع لسقوط بغداد ومقتل الخليفة وقامت مصر لتدرأ عن العالم العربي خطر المغول وأخذ الجيش المصري يلقي بجحافله أمام هؤلاء المغيرين فينزل بهم الهزائم المتلاحقة تارة في عين جالوت وطورا في حمص. أو في أطراف العراق.

ولقد شارك الظاهر بيبرس في معركة عين جالوت بدور ضخم فعندما هدد المغول حلب. لجأ صاحبها الناصر يوسف إلى الإستنجاد بمصرٍ.. هنا يذكر التاريخ موقفا للأمير بيبرس في دمشق إذ تخوف بعض الأمراء من عاقبة مقاومة المغول، ونادى بعضهم بالإستسلام لهولاكو وجيشه، عندئذ ثار بيبرس ولطم ذلك الأمير على وجهه وسبه قائلاً: أنتم سبب هلاك المسلمين، وهكذا بث بيبرس في الناصر يوسف وأمرائه روح المقاومة، وسار إلى غزة، وفي الوقت الذي كانت طلائع المغول قد وصلت إلى غزة والخليل، كان الجيش المصري تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس قد تقدم، وسرعان ما بادر بيبرس المغول بالهجوم قبل أن تأتيهم النجدة المنتظرة فأنزل بهم الهزيمة وطاردهم حتى نهر العاصي.

وبيبرس هو الذي خرج على رأس مقدمة الجيش إلى غزة.. حيث أنزل الهزيمة بالقائد المغولي، وهو الذي قاد الكمين في ـ عين جالوت لاستدراج ـ كتبغا ـ قائد المغول

والإيقاع به، وهو الذي أبدى طيلة المعركة من ضروب الشجاعة والفروسية ما جعله محور الموقعة وقلب الحركة فيها..

وما كاد بيبرس يمكن لنفسه ويخضع الثورات، حتى دعم مركزه ومركز المماليك بإحياء الخلافة العباسية في مصر، ثم بدأ حملاته على الصليبيين والمغول والباطنية جميعاً.

وقد أدرك بيبرس أن دولته تواجه حلفاً قوياً يربط بين اثنين من أعدائه: هما الصليبيون ومغول فارس، تربطهما غاية واحدة هي العمل على إجتياح البلدان العربية، لذلك إتجهت خطته إلى القضاء على كل من هذه الخصمين على حدة. ولذلك فإنه لم تمر سنة من السنوات العشر ١٢٦١ ١٢٧١، دون أن يوجه حملة أو يقوم بغارة على الممتلكات الصليبية بالشام، وفي ١٢٦٣ قام بهجوم شامل على الصليبيين بالشام فتوجه بكليته إلى الفرنج وكان أن أتجه بيبرس من غزة إلى جبل الطور قرب عكا.. وعندئذ تملك الصليبيين الخوف.. فاقتحم رجاله عكا وغنموا منها. وطاف بيبرس بأسوار عكا من ناحية البر. ثم لم يلبث أن وجدهم يحفرون الخنادق.. هنالك هدم الأبراج المحيطة بها. وحرق ما حولها من أشجار. وبذلك كشف مدينة عكا. وكان الفرنج يزعمون أن أحداً لا يجسر على أن يقترب منها. ومضى بيبرس يتجول بين المعاقل الصليبية في فلسطين وكشفها مكاناً مكاناً: الناصرة. القدس. واستولى على الكرك وحصنه وزوده بالسلاح والأقوات.

ثم عاد إلى القاهرة وبينما هو بها وردت الأخبار بإغارة المغول على البيرة فأرسل جيشا في أربعة آلاف فارس إلى الشام ثم تلاه بأربعة آلاف أخرى.. ثم خرج بنفسه إلى الشام. وهناك علم بارتداد المغول عن البيرة فاستقر رأيه على مهاجمة الصليبيين، فبدأ يهاجم ـ قيسارية ـ فأمسك المطرقة ووقف بنفسه في وسط جنده يعمل في هدم سورها ونصب المجانيق على أسوارها، وهاجم المدينة ونجح رجاله في حرق أبوابها واقتحامها وكان يخرج بنفسه وبيده ترسه وعدة سهام، وهكذا لم يكد يمر أسبوع حتى سلمت قلعة قيسارية فتسلق المسلمون الأسوار وحرقوا الأبواب ودخلوها من أعلاها وأسفلها وأذن بالصبح عليها، وكانت قيسارية تهدد مواصلات المسلمين بين مصر والشام وتشل تحركاتهم الحربية في فلسطين.. لذلك عزم بيبرس على هدمها.

وفي نفس الوقت أرسل بيبرس تجريده إلى بيسان، وجماعة إلى عكا فوصلوا إلى أبوابها. وأسروا جماعة من الصليبيين. وأرسل قسما من جيشه إلى حيفا.. ففر الصليبيون من المدينة وقلعتها ولاذوا بسفنهم، عندئذ ضرب المسلمون حيفا وقلعتها وأحرقوا أبوابها وعادوا بالأسرى والغنائم، وأما بيبرس نفسه فقد إتجه في تلك الأثناء إلى ـ عثليت ـ فخربها وقطع ما حولها من أشجار. ثم عاد إلى قيسارية.. ثم لم يلبث بيبرس أن هاجم ـ ارسوف ـ فسار إليها من غير أن يعرف أحد قصده ونقل إليها كمية ضخمة من الأحطاب. وحفر بعض

الخنادق حولها لإحكام حصارها وردم الخنادق بالأحطاب، عندئذ تحايل الفرنج وأحرقوها كلها، ولكن بيبرس لم يرع إنتباه المؤرخين، فكان يمشي بمفرده وفي يده ترس.. تارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتح وتارة على حافة البحر يرأس مراكب الفرنج حتى رمى في يوم واحد ثلثمائة سهم بيده، وكان يطوف بين العساكر في الحصار بمفرده.. وقد بلغ من حماسة المجاهدين في عصابة - أرسوف - أن شاركت النساء الرجال في الجهاد، ولم تكتف النساء الصالحات بالعمل في سقاية الماء وسط القتال. بل كن يعملن في جو المجانيق، حتى سقطت أرسوف، فلم يشعر الصليبيون إلا بالمسلمين، وقد تسلقوا القلعة ورفعوا أعلامهم عليها وأسروا من فيها. وكان أن إستعمل بيبرس أسرى الصليبيين في أرسوف في هدم مدينتهم وتخريب حصونهم بأيديهم. ثم توقف بيبرس عاماً.. ثم عاد مرة أخرى إلى مسرح القتال.. فبدأ غاراته على الإمارات الصليبية.. ثم اتجه إلى عكار ومنها إلى صفد.. وهنا أظهر همة كبرى وشجاعة نادرة. فاستقدم المجانيق من دمشق إلى صفد.. ولما عجزت الجمال عن حملها حملها الأجناد والأمراء على الرقاب. وأخذ السلطان يعمل بنفسه في جر الأخشاب مع البقر. وربما تعب الناس واستراحوا.. أما بيبرس فكان لا يسأم من الجر ولا يتوقف ولم يلبث أن اشتد القتال فأظهر المسلمون بقيادة بيبرس شجاعة نادرة.

وعجز الصليبيون داخل - صفد - عن مقاومة هجمات

بيبرس فاضطهدوا إلى التسليم - ١٢٦٦ - وطلبوا الأمان.. وبعد أن خربت قلعة صفد عاد فاتخدها مركزاً للهجوم على الصليبيين.. ثم وجه جنوده في حملة ضد أرمينيا الصغرى.. واستولى هو على هوقين.. وتبنين والرملة.. وعاد بيبرس في العام التالي ١٢٦٧ .. فاختار أن يبدأ هجومه على عكا .. فلما أرسلت إليه القوى الصليبية مندوبها تطلب الصلح.. لم يرفض طلبها جميعا حتى لا تتكتل ضده.. وإنما اختار أن يعقد الصلح مع بعضها دون الآخر حتى يتمكن من القضاء عليها واحدة بعد أخرى..

وفي عام ١٢٦٨ علم بيبرس بتحرك التتار على حلب فأسرع قاصداً الشام واختار أن يبدأ بالصليبيين. فحاصر يافا واستولى عليها.. ثم إتجه نحو حصن الشقيف «أرنون» فجد في حصاره فلم يلبث أن سلم لبيبرس ثم إتجه شمالا فقصد طرابلس حيث أغار على ضواحيها ثم مر بحمص وحما؛ وأخيراً وصلت جيوش بيبرس إلى أنطاكية فاحاطت بها من كل جانب، وقد كتب يفاوض الصليبيين ثلاثة أيام وهم لا يجيبون، هنالك شن هجوماً عاماً على المدينة واقتحمها وفرت الحامية وعددها ثمانية آلاف إلى القلعة وأرسلوا يطلبون الأمان ١٢٦٨ .. والواقع أن إستيلاء بيبرس على إنطاكية كان أعظم فتح حققه المسلمون منذ إستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ١١٨٨ ، وكان ضياع انطاكية بالنسبة للصليبيين أكثر من كارثة، فقد كانت أولى الإمارات التي أسسها الصليبيون

في الشرق منذ الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٨، ولذلك جاء سقوطها على يد بيبرس ١٣٦٨ إيذانا بانهيار البناء الصليبي في الشام وأعلانا لحركة الجهاد الكبرى التي شنها سلاطين المماليك ضد الصليبيين وهي الحركة التي لم تنته إلا سنة ١٢٩١ بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام، ثم عاد إلى الشام في فبراير سنة ١٢٦٩ ثم اتجه إلى الحج في سرية تامة، ثم عاد إلى دمشق، ولما علم باتصالات المغول والصليبيين من أجل تحالف الفريقين ضد المسلمين هناك فكر بيبرس في شمال الشام، بعد أن هادن الإسماعيلية حتى يوجه جهوده كلها ضد الصليبيين وحلفائهم المغول، فلما علم باتجاه لويس التاسع إلى تونس، لم تفتر همته عن مساعدة تونس فأرسل إلى صاحبها بمسير النجدة إليه وكتب إلى عربان برقة والغرب بالإسراع لنجـدة صـاحـب تونس، وأمر بحفر الأبار في الطرقات ليعتمد عليها العسكر الخارجين من مصر إلى تونس، فلما جاءت الأخبار بمقتل لويس، عاد بيبرس من جديد يفكر في أمر الصليبيين بالشام، هنالك إتجه إلى عسقلان فهدم باقي تحصيناتها. خوفاً من إحتلال الصليبيين لها، ثم إتجه إلى طرابلس.

وكان أميرها أقوى الأمراء الصليبيين في الشرق، غير أنه وهو يعلم مدى تحصينها لم يبدأ بمهاجمتها إلا بعد أن إستولى على بعد الحصون والمعاقل الصليبية الهامة المحيطة بها ليسهل إحكام الحصار حول طرابلس ذاتها لذلك بدأ بالإستيلاء على ـ صافينا ـ وتل خليفة وعبره.. ثم شرع ١٢٧١ في مهاجمة

حصن الأكراد وهو أقوى الحصون وأمنعها وكان تابعاً للصليبيين. فاستولى عليه.. ثم اتجه إلى حصن عكا شمال طرابلس وشدد الهجوم عليه حتى اضطرت حاميته إلى التسليم ثم اتجه بيبرس إلى مهاجمة - طرابلس - نفسها، ثم رأى أن يتريث بعد وصول بعض الإمدادات.. وقبل عقد صلح معهم. ثم لم يلبث بيبرس أن قام بعملين هامين. أولهما - الإستيلاء على حصن العليقة من الإسماعيلية والثاني - إرسال حملة بحرية لتأديب صاحب جزيرة قبرص.

ثم بدأ بيبرس حروبه ضد المغول وحلفائهم في آسيا الصغرى.

وكان بيبرس قد تنبه إلى ما يجري من إتصالات بين مغول فارس ومغول أرمينيا ولويس التاسع والقوى الحاقدة على المسلمين في الغرب، وهي إتصالات إستهدفت الإجهاز على البلدان العربية في الشرق الأدنى.

وإذا كان المغول قد اجتاحوا العالم الإسلامي وعاهدوا الصليبيين على القضاء على المسلمين فإن فريقا منهم قد إعتنق الإسلام واتخذوا سياسة مغايرة تماماً، تلك هي القبيلة الذهبية - وعلى رأسها بركة خان وقومه الذين آزرهم بيبرس. وكسبهم إلى جانبه بوصفهم قوة إسلامية جديدة للوقوف في وجه مطامع مغول فارس.. وقد كتب السلطان بيبرس إلى بركة خان يغريه بقتال هولاكو ويرغبه في ذلك، بيد أن

بركة خان لم يكن في حاجة إلى إغراء وتحريض، ولم تلبث رسل بركة خان أن وفدت إلى بيبرس، ومعهم رسالة من بركة يقول: فليعلم السلطان ـ الظاهر ـ أني حاربت هولاكو الذي هو من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا إيمانا بدين الإسلام وكان لكل أمير وأميرة من بلاط بركة خان إماما ومؤذنا خاصاً وكان الأطفال يحفظون القرآن الكريم في المدارس كما توج بيبرس علاقته مع مغول ـ القفجاق ـ بزواجه من إبنة بركة خان، وقد عمل بيبرس على الوقوف لمغول فارس بالمرصاد وصد غاراتهم عن بلاد الشام، وتتبع محاولاتهم مع القوى الأخرى في الشرق الأدنى ـ صليبية أو غير صليبية ـ وهذا هو السر في أن حروب السلطان بيبرس لم يقتصر في ذلك الدور على الصليبيين في الشام ومغول فارس في العراق وإنما امتدت إلى أرمينيا الصغرى.

وكانت قد جرت بعد الإنتصار في البيرة وهزيمة المغول فيها ١٢٦٥ أن جرت مفاوضات بين المغول والقوى الغربية والفرنجة للإتفاق في قوة واحدة للقضاء على القوى الإسلامية بعد أن رأت القوى الغربية الصليبية في المغول أداة طيبة يمكن إستغلالها للقضاء على الإسلام والمسلمين في الشرق الأدنى، هنالك بدأ المغول غاراتهم على الساجور قرب حلب وأنهم أعدوا فرنج الساحل ـ أي الصليبيين ـ للقيام بهجوم مشترك على بلاد الشام هناك خرج بيبرس بنفسه.

ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى سمع بانهزام المغول

وارتدادهم عن بلاد الشام، ثم علم أن جموعا من الصليبيين خرجوا من أرغونه قاصدين حرب المسلمين بالشام بناء على إتفاق سابق من المغول. ولكن سفنهم تعرضت لريح عاتية فرقتها. ثم عاود المغول الهجوم ١٢٧١ على عين تاب وعمق الحارم هنالك خرج بيبرس على رأس جيشه فحلت الهزيمة بالمغول عند جران وتدخل الصليبيون فهزمهم المسلمون وعاقب بيبرس الصليبيين فأغار على عكا ثم هزم المغول في البيرة هزيمة ساحقة.

آفاق البحث

صفحة

صفحة